معالم الطريق

٧

غاريبالدي

أبو إيطاليا الحديثة



تأليف: مارسيا دافنبورت

ترجمة: علي أدهم

مراجعة وتقديم: الدكتور زكي نجيب محمود

« معالم الطريق »
شخصيات وأحداث غيرت مجرى التاريخ
بإشراف الدكتور زكي نجيب محمود

(٧)

غاريبالدي

منشيء إيطاليا الحديثة

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مـــع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة ـ نيويورك

فبراير ســـنة ١٩٦٣

غاريبالدي
منشئ إيطاليا الحديثة

تأليف

مارسيا داڤنبورت

ترجمة

علي أدهم

مراجعة وتقديم

الدكتور زكي نجيب محمود

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد – القاهرة

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلفة : مارسيا دافنبورت

تلقت تعليمها فى الولايات المتحـدة وأوروبا وتتكلم خمس لغات ، كان كتابها الأول عن حياة موزار نشر سنة ١٩٣٢ ، تشمل رواياتها ، رواية "Lena Gayer" عن حياة احدى المغنيات ورواية « وادى العزم » The Valley of Decision عن حياة أسرة تعمل فى صناعة الصلب ببتسبرج ، تقضى مارسيا دافنبورت نصف العام فى نيويورك والنصف الثانى فى ايطاليا على بحيرة كومو حيث ألفت كتابها عن غاريبالدى ، وقد سارت متتبعة خطى الرجل العظيم فى ايطاليا كلها لتعد هذا الكتاب ، كما زارت منزله فى جزيرة كابريرا ،

المترجم : على أدهم

تقلب فى عدة وظائف فى وزارة التربية والتعليم كان فى آخرها مراقبا مساعدا ونائبا لمدير ادارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم ، له عدة ترجمات ومؤلفات منها : « محاورات رينان الفلسفية » و « ألوان من أدب الغرب » و « مستقبل روسيا » ،

ومن مؤلفاته : « المذاهب السياسية المعاصرة » و « الجمعيات السرية » و « بعض مؤرخى الأعلام » و « بين الأدب والفلسفة » كما أن له بعض كتب فى التأريخ للأشخاص مثل «صقر قريش» و « متزينى » و « منصور الأندلس » ،

المراجع وصاحب المقدمة : الدكتور زكى نجيب محمود

أستاذ المنطق ومناهج البحث بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، حصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة لندن • مؤلف لعدد كبير من الكتب فى الفلسفة وفى النقد الأدبى • من أهم مؤلفاته فى الفلسفة « المنطق الوضعى » و « خرافة الميتافيزيقا » و « نحو فلسفة علمية » و « حياة الفكر فى العالم الجديد » الذى أصدرته هذه المؤسسة • ومن مؤلفاته فى تاريخ الأدب ونقده « فنون الأدب » و « قصة الأدب فى العالم » • ترجم كتاب « المنطق » لمؤلفه جون ديوى ، وهو من الكتب التى نشرتها هذه المؤسسة • نال جائزة الدولة التشجيعية لسنة ١٩٦٠ •

مصمم الغلاف : حسن عبد الرحيم عنبر

يدرس بكلية الفنون الجميلة (قسم نحت) ، صمم عدة أغلفة لبعض الكتب التى اصدرتها المؤسسة •

محتويات الكتاب

صفحة

« معالم الطريق »

هذه السلسلة

بقـــلم

الدكتور زكى نجيب محمود

الرجال الأعلام ، والأحداث الجسام ، هى المعالم المضيئة ، التى يستهديها الرائى اذا ماكر ببصره راجعا ، ليرى كيف سارت الانسانية فى طريقها منذ فجرها حتى بلغت هذا الذى بلغته فى يومنا الراهن ، نعم ان تطور التاريخ قد كان مرهونا دائما بكد الجماهير وكدحها ، لكن طبائع الأمور تقتضى أن تتبلور تلك الجماهير الكادة الكادحة فى رجل ينطق بلسانها ويعبر عن وجدانها ، اذا ما كان الموقف موقف قول وتعبير ، ويضم فاعليتها ، ويجمع نشاطها تحت قيادته،اذا ما كان الموقف موقف فاعلية ونشاط • وهكذا يرى الرائى ـ اذا أرســـل البصر الى الطريق التى سارت عليها الانسانية ابان تاريخها الطويل ـ يرى الرائى عندئذ أن ثمة معالم تحدد مراحل السير ، وهى معالم ان تكن تشمخ برءوسها فوق سطح الأشخاص والحوادث ، الا أنها نابعة من الطبيعة نفسها التى يتألف منها هـــؤلاء الأشخاص والحوادث ، فكأنما هاتيك الأعلام هى رءوس الموج فوق سطح البحر ، تعلو على محيطها المائى ، لا لأنها مختلفة عن ذلك المحيط ، بل لأن ذلك المحيط المائى نفسه هو الذى دفعها الى أعلى لتكون له الظاهر المرئى لمن وقف عند الشاطىء يرسل البصر •

ولقد أردنا بهذه السلسلة من الكتب أن نقدم الى شبابنا القارىء صورا موجزة لكنها قوية ناصعة ، لما نتخيره له من جسام الأحداث وأعلام الرجال الذين نسجوا بخيوطهم نسيج الحياة كما نحياها اليوم :

فمن الرجال من كشف قارة ، ومنهم من ارتاد محيطا مجهولا ، ومن الرجال من حرر بلاده ، ومنهم من خلص البشرية كلها من وباء فاتك ، أو من أنتج للبشرية كلها أثرا خالدا من علم أو من فن ، وكذلك قل فى كبريات الأحداث التى كان الحدث الواحد منها بمثابة نقطة التحول فى مجرى التاريخ كله : فما ظنك بما قد صنعه رجال (أو نساء) من أمثال اسكندر الأكبر ، وجنكيز خان ، وجان دارك ، وماركوبولو ، ومارتن لوثر ، وليوناردو دافينشى، وغاريبالدى ، وكولمبس ؟ ثم ماظنك بأحداث من قبيل موقعة ووترلو ، وماجنا كارتا (أو العهد الأعظم) ، وكشف القطبين ، وصعود الهملايا ، والانتصار على جراثيم الحميات ؟ تلك كلها قمم تلخص جهود الانسان فى صنع حضارته وثقافته •

ان الانسان الواحد العظيم ، والحدث الواحد الجسيم، قد لا يكون « واحدا كالذى نعرفه فى سائر الآحاد عند العد والحساب ، لأنه قد يعدل الألف والألفين ، قد يعدل الملايين بصـــفاته التى استجمعت صفات جنسه كله ، أو بآثاره التى يخلفها من بعده فاذا هى ثابتة الجذور لا تزول ولا تحول ، ولا وسيلة الى أن يعرف القارىء أوزان الناس والحوادث ، متى ترجح كفتها ومتى تشيل الا أن نهيىء له الفرصة فيلاقى هاتيك الحوادث وهؤلاء الناس لقاء مباشرا فى سلسلة الكتب التى نقدمها له : سلسلة « معالم الطريق » •

مقـــدمة

بقـــلم
الدكتور زكي نجيب محمود

كثيرا ما يقف الواقع بجسامته وكثافته حائلا دون الانسان وأمانيه ، فيقول الانسان عندئذ : ألا ما أحلى تلك الأماني لولا هـذا الحائل السميك الصفيق بيني وبين بلوغها ! حتى ينهض من بين الناس رجل ذو عزيمة ماضية ، وارادة لا تعرف حيلولة الحوائل دون نفاذها ، فينظر الى الواقع القائم نظرة كأنما هي من نار تذيبه ذوبان الجليد تحت الشمس ، واذا بالعوائق قد أزيحت ، واذا بالأمل المرجو قد أصبح هو الحقيقة الواقعة الجديدة ـ وتلك هي حال غاريبالدى البطل الذى أنشأ ايطاليا الحديثة الموحـــدة بعد أن كانت ممزقة دويلات دويلات ، وكان ضعاف الهمة ينظرون الى بلدهم ذاك الممزق ، ويحلمون له بالتوحيد ، ولكن أنى للأحلام أن تتحقق !

فمنذ مائة عام تقريبا كانت مملكة بدمونت الواقعة فى أقصى الشمال من شبه الجزيرة الايطالية ـ وفيها نشأ غاريبالدى ـ هى الجزء الوحيد من ايطاليا ، الذى يحكمه ملك ايطالى ، وأما سائر ايطاليا فكان مقسما الى ولايات يحكمها أجانب : النمسا هنا ، وفرنسا هناك ، والبابا فى روما • وكانت قلوب الايطاليين تهفو الى وحدة سياسية تجمع أشتاتهم ، ومن بين هؤلاء كان غاريبالدى ، فما ان سمع ـ وهو بعد شاب يافع ـ بأن هنالك رجلا اسمه « متزينى » يتزعم جماعة أطلقت على نفسها اسم جمعية « ايطاليا الفتاة » حتى ذهب اليـــه ، وانضم الى جمعيته •

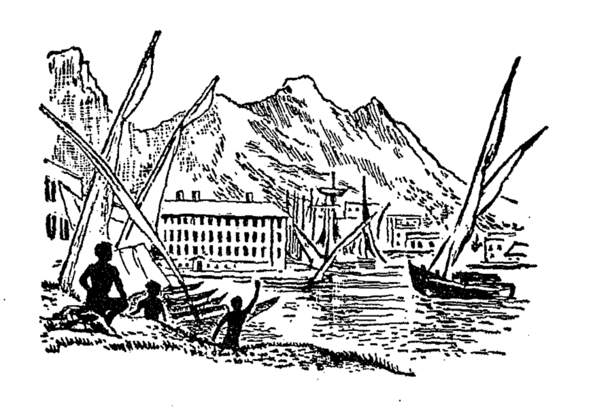
وبدأت الجماعة بثورة أرادوا بهـــا باديء ذى بدء أن يحولوا بدمونت جمهورية لتكون بعدئذ منطلقا نحو الثورة الشاملة للبـــلاد كلها ، لكن الجماعة أخفقت فيما أرادت ، فهرب متزينى الى لندن ، وفر غاريبالدى متنكرا فى زى ريفى عابرا جبال الألب ، ثم هاجر الى العالم الجديد ، حيث استقر فى البرازيل حينا ، ولم يلبث بضعة شهور فى أعمال التجارة هناك ، حتى تحركت نفسه نحو الجهاد فى سبيل الحرية ، كائنة ما كانت الحرية التى يجاهد فى سبيلها ، من ذلك أن « روساس » ــ حاكم الأرجنتين المستبد ــ قد سولت له نفسه الطامعة أن يغزو أرجواى ، التى كانت تسكنها جالية كبيرة من الايطاليين الذين جاءوا من بلادهم اما ابتغاء رزق أوسع ، واما فرارا من طغيان سياسى لينعموا بحرية أوفر ، وهاهم أولاء من موطنهم الجديد يفاجئهم طغيان آخر ، فجيشوا من أنفسهم جيشا صغيرا، واتجهت أنظارهم الى المجاهد الايطالى غاريبالدى أن يأخذ منهم مكان القيادة ، فرحب رجل الجهاد بالجهاد ٠

لم تكن بين أيدى المحاربين وفرة من مال ، فعمل هذا القائد على أن تنحصر النفقات فى الحد الأدنى ، وكان مما استعان به فى هــذا السبيل ، أن ألبس رجاله قمصانا حمرا مصنوعة من الصوف ، كانت قد أعدت من قبل فى مصانع أرجواى لتباع فى الأرجنتين للعمال الذين يعملون فى مذابح الماشية ، فلما أن انقطعت التجارة بين البلدين ــ أرجواى والأرجنتين ــ وأصبحت تلك القمصان مضيعة على صانعيها، اشترتها الحكومة بثمن زهيد وجعلتها أردية للجنود المتطوعين ٠ ٠ ٠ هكذا جاءت القمصان الحمر نتيجة مصادفة ، لكنها أصبحت فيما بعد علامة جنـــود غاريبالدى حتى بعد أن عاد القـــائد الى أرض الوطن ليخوض معركة التحرير الكبرى ، وقد جعل غاريبالدى لجيشه المجاهد فى أرجواى علما أسود فى وسطه بركان ، وسئل فى ذلك فقال : انه رمز لايطاليا الحزينة التى تضطرم فى جوفها نار الحرية المقدسة ٠

وحانت ساعة العودة الى أرض الوطن بعد اثنتى عشرة سنة ، وعاد فى صحبته ســـتون من لابسى القمصـــان الحمر ، وكان ذلك عام ١٨٤٧ ــ عاد البطل وأتون الثورة يستعر فى النفوس ، وكان زعماء الثورة يستلهمون الجمهورية الرومانية القديمة فى عهد يوليوس قيصر مثلهم الأعلى لأن الرومان لم يبلغوا فى تاريخهم من العظمة مابلغوه فى عهد قيصر ــ ومالبث هذا القائد الساحر أن جمع حوله جموعا كانت ترتقب عودته ، فأينما سار انضم اليه الأتباع ، دون أن يلقى الخطب ، أو أن يعد بالغنائم ، فلا غنيمة الا أن تظفر البلاد بحريتها ٠

وان قصة كفاحه لتطول ، فلا يفيها حقها منك الا أن تقرأ عنها هـــذا الكتاب الذى بين يديك ، لترى بعينيك كيف تكون عزمات الأبطال فى كفاحهم من أجل أوطانهم ٠ وعلى أننى لا أستطيع أن أختم هذه المقدمة دون اشارة الى قصة جانبية تهز القلب هزا ، ألا وهى قصة زوجته التى تزوج منها فى أولى أيامه فى البرازيل ، فظلت الى جانبه تعانى وتشقى ، لا تطمئن ولا تستريح الا اذا وجدت نفسها تعين زوجها فى جهاده ، حتى سقطت من الاعياء ميتة وهى تنتظر مولودا بعد قليل ٠

ألا ما أجدر شبابنا الفتى النهاض ، فى هذه الفترة الخطيرة من تاريخ الأمة العربية التى تنشد الوحدة بعد تمزق ، كما كانت ايطاليا تنشد الوحدة منذ مائة عام ، أن يطالعوا هذه الصفحة الرائعة من صفحات الاخلاص والعزم ٠ وان قراء العربية لمدينون الى أديب كبير ــ هو الأستاذ على أدهم الذى قام بترجمة الكتاب ــ لمدينون له بأن قدم لهم بقلمه البليغ هذه الصورة الناصعة المشرقة ٠



الفصل الأول

الربان الشاب

كان اليوم الرابع من شهر يوليو سنة ١٨٠٧ يوما سعيدا فى حياة ربان ايطالى فقير وحياة زوجته ؛ فقد ولد لهما فيه ابن ، والأرجح أنهما كانا لايدريان أن يوم ميلاد نجلهما كان يوافق يوم الاحتفال الأول بعد الثلاثين باستقلال الولايات المتحدة ، وهو يوم له دلالته عند محبى الحرية ، وماذا ياترى كان يدور فى خاطرهما لو علما أن ابنهما سيحبه الايطاليون فى مقبل الأيام للسبب نفسه الذى أحب له الأمريكيون جورج واشنطون وبالأسلوب نفسه !

ولد جيوسبى غاريبالدى فى نيس ، وهى الآن جزء من فرنسا ، ولكنها كانت قبل ذلك ايطالية ، وقد ضمها نابليون لفرنسا ثم أعيدت الى مملكة بدمونت الايطاليـــة حينما قسم أوروبا الذين تغلبوا على نابليون فى سنة ١٨١٥ تقسيما يلائم رغباتهم • وقد ظلت ايطالية حتى سنة ١٨٦٠ حينما أعطيت لفرنسا فى مقابل موافقتها على ضـم ولايتى توسكانيا واميليا ، وكان هذا نفسه مثالا من أمثلة ماحدث فى أجزاء مختلفة من ايطاليا خلال مدة تزيد عن ألف وخمسمائة سنة منذ سقوط الدولة الرومانية •

لذلك لم يكن عجيبا أن سواد الشعب ـ بعد أن مرت به قرون وهـــو يعامل فى الحروب وفى دسائس الدول الأجنبية معاملة قطع الشطرنج ـ لا يفكر أفراده فى أنفسهم باعتبارهم رعايا أمة • وانما كان جل همهم أن يجدوا عملا يمسك عليهم حياتهم ، ويقيم أودهم • وكان هـــذا من البواعث التى جعلت والد جيوســـبى ـ دومينيكو غاريبالدى ـ ينتقل منذ ثلاثين سنة من مقر أسرته على مقربة من جنوا الى نيس، وكان الغاريبالديون دائما قوما من البحارة الأجراء الأشداء . كالأرومة التى أنمت كريستوفر كولمبس •

واسم جيوسبى هو مقابل اسم يوسف فى الايطالية ، وكان اللقب الذى يلحق هذا الاسم عند الايطاليين هو بيبينو أو جو الصغير وبهذا اللقب كان يدعوه لداته فى المدرسة • ولكن مما ساء والديه وخيب أملهم أن جو الصغير لم يكن دائم المثابرة على الذهاب الى المدرسة، وكان التعليم فى تلك الأيام بعد مرحلة الدراسة الابتدائية يكلف نفقات فى ذلك الجزء من العالم كما هى الحال الآن ، وكان دومينيكو غاريبالدى يحصل على قوته بشق النفس ، فقد كان ربان سفينة صغيرة تجارية فى البحر المتوسط ، وكان يجاهد ليتيح لابنه فرصة للتعليم أكثر مما يستطيع أمثاله ، وتفى به أحواله ، وكان هـــو وزوجته يأملان أن

جيوسبى سيظل على الشاطىء ويعيش عيشة أكثر طمأنينة من حياة البحار وأعود عليه بالخير ، ولكنهما كانا يقاومان الطبيعة ، فقد ولد بيبينو والبحر فى دمه ، وكان من طالعة أمره مغامرا جريئا لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال ٠

كان يهرب من المدرسة كلما استطاع أن يستعير بندقية ؛ لأن الجبال القريبة كانت مكانا صالحا للصيد ، ولم يكن من الميسور ابعاده عن ناحيـــة البحر حيث كان يسترضى الصيادين ليحملوه معهم فى سفنهم ويتركوه يساعد فى نشر القلوع وسحب الشباك ٠

وتعلم الحركات الرياضية ، وذلك ـ حسب كلماته ـ « بتسلق حبال الصارى وترك نفسى منزلقا فوق الحبال،وتعلمت اللعب بالسيف فى الدفاع عن رأسى وبذل أقصى ما أستطيع لتحطيم رءوس الغير » ٠

وقد وصف نفسه بأنه من أقوى السباحين فى العالم ، وكان رفقاؤه فى المدرسة يوافقونه على ذلك ، وكان من الحين الى الحين ينقذ ناسا من الغرق ، وكان حسن الصوت مثل الايطاليين الأصلاء ،ويعرف أغانى البحارة والمزارعين جميعها ، كتب عنه أحد أصدقائه « حتى وهو غلام كنا جميعا نتجه بأنظارنا اليه ونختاره حكما لنا ، وكان الصغار يعدونه حاميهم الطبيعى » ٠

وحينما يصرح الشركان بيبينو يتزعم العصـــابة ، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره وهو غلام وسيم قوى الأجلاد تنساب خصلة من الشعر الأحمر الذهبى فوق جبينه وضع خطة مع بعض أصدقائه للهرب الى جنوا ليجربوا حظهم بوصفهم بحارة ؛ لأنهم سئموا المدرسة، واستولوا على زورق وحملوا به بعض المؤونة ومعدات الصيد وأبحروا به ٠ وكانوا قد ابتعدوا عن الشاطىء الشرقى بضعة أميال حينما لحق

بهم زورق أرسله والده لاعادتهم الى ديارهم ، وكان أحد القساوسة قد أخبره بهربهم ٠

وانتهت العقوبة بتسليم الأب غاريبالدى بالواقع الذى لا مناص منه ، فلم يكن هناك فائدة فى حمل بيبينو على الاخلاد الى الحياة فوق اليابسة ، ولذلك أرسله أبوه الى البحر ، وبدأ يمارس الخدمة فى احدى السفن ، وجاهد فى السنوات العشر التالية حتى وصل ــ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ــ الى مرتبة ربان سفينة مثل والده ٠ وكانت أول سفينة تولى قيادتها مركبا شراعيا اسمه « كوستانزا » وقد فتن بها ، وكانت للاتجار بين نيس وشواطىء البحر المتوسط حتى ثغور تركيا والبحر الأسود ٠

وكانت حياة الملاحين حياة خشنة حافلة بالأخطار ، فقد كان القراصنة يطوفون بنواحى البحار ، وقد قبضوا على الربان الشاب وسلبوه ما معه ثلاث مرات ، وحف به الاضطراب السياسى من جميع النواحى ٠ ففى ذلك الوقت كانت اليونان تحارب للاستقلال من حكم الأتراك ، وكان الثائرون فى أمم كثيرة متجهين فى هذا الاتجاه نفسه ، ومستعدين للانضمام الى المعركة ٠ ولقى غاريبالدى فى الشرق لأول مرة ايطاليين كان لا يمكن أن يعرفهم لو انه ظل قابعا فى مسقط رأسه ، وكان هؤلاء من المنفيين السياسيين والثائرين الذين وقفوا حياتهم على قضية لم يسمع بها قط من قبل ــ وهى قضية ايطاليا الديمقراطية المتحدة ٠

وكانت مملكة بدمونت الواقعة فى أقصى شمال شبه الجزيرة الايطالية وبها نشأ غاريبالدى هى الجزء الوحيد من ايطاليا الذى يحكمه ملك ايطالى ، أما سائر ايطاليا فكان مقسما الى ولايات تحكمها النمسا والبابا ومملكة نابولى ، حكما استبداديا قاسيا ، وكان الأمل الوحيد



قبض القراصنة على الشاب غاريبالدى ثلاث مرات وسلبوه ما معه ٠

فى تحرير هذه الولايات هو كسر شوكة الحـــكام المستبدين وجعل ايطاليا أمة واحدة

وماعتم غاريبالدى الشاب أن تعلق بهذه الفـــكرة وتحدث مع الشبان الذين أثاروا فى نفسه المشاعر الوطنية وأصغى اليهم وسرعان ماتطوع لمساعدتهم ، وأخبره أحدهم ـ واسمه كونيو ـ بأمر رجل اسمه جيوسبى متزينى ، وأنه كان أديبا ووطنيا وثائرا وقد نفى طوال حياته تقريبا من ايطاليا ، ولكنه كان أقوى مؤثر فى الرجال الذين عملوا على جعل ايطاليا دولة عصرية حرة ، وكان متزينى زعيم جماعة أطلقت على نفسها اسم جمعية « ايطاليا الفتاة » • وكان يعيش حينذاك فى مرسيليا ، وحينما انتهت الرحـــلة التى كان يقوم بها غاريبالدى ذهب لزيارة متزينى، وانضم الى جمعية ايطاليا الفتاة وتقرر اتجاه حياته •

ولم يكن متزينى مصرا على تحرير ايطاليا وتوحيدها فحسب ، وانما كان يرمى كذلك الى جعلها جمهورية • ولما كانت جماعة ايطاليا الفتاة لا تستطيع أن تعمل على بدء الثورة فى الأجزاء التى يحكمها الأجانب فقد بدأ أعضاؤها يعملون حيثما يستطيعون ، وحاولوا أن يوجهوا الضربة من أقرب وطن لهم وهو مملكة بدمونت آملين أن يجعلوها جمهورية •

ففى فبراير ســـنة ١٨٣٤ جمع متزينى قوة من المتطوعين من جنسيات مختلفة وهاجم بدمونت من ناحية سويسرا ، وكان قد أمر غاريبالدى قبـــل ذلك بالذهاب الى جنوا والالتحاق بالأســـطول البدمونتى الملكى ، وكان على هذا الشاب الثائر الذى تنقصه التجربة أن يحاول من الداخل حمل الأسطول على الانضمام الى الثورة ، وكانت هذه الفكرة حمقاء مثل كثير من الأفكار التى كان يحلم بها متزينى غير العملى •

وأخفقت الثورة ، ولم ينضم الى الثائرين الجيش ، ولا الشعب ، ولا الأسطول الملكى · وصدرت أحكام قاسية تدين أعضاء ايطاليا الفتاة، وهرب متزينى الى لندن وتنكر غاريبالدى فى زى فلاح وهرب من جنوا فوق جبال الألب الى فرنسا ، وهناك قرأ فى احدى الجرائد أنه قد حكم عليه بالاعدام متهما بتهمة الخيانة ·

ولم يستطع غاريبالدى أن يعود الى وطنه ، وكان هناك كثيرون من الايطاليين السياسيين المنفيين فى مثل موقفه ، وقد رأوا أن يذهبوا الى العالم الجديد ليجدوا سبيلا للحياة ، فأبحر الى البرازيل ، وفى ريو دى جانيرو أنمى صداقة صميمة مع شاب آخر ثائر اسمه روستى ، وشرع الاثنان يشتغلان بالتجارة الساحلية فى احدى السفن الصغيرة ، ولكن تسعة أشهر من ممارسة التجارة الهادئة كانت كافية لغاريبالدى ، فقد ذاق طعم الجهاد الذى كان مقدرا له أن يستأثر بحياته ــ وهو الجهاد من أجل الحرية ــ وكان جهاد أى انسان لمقاومة الطغيان أو السيطرة الامبراطورية يبدو لغاريبالدى كأنه جهاده الخاص ·

وثارت فى ذلك الوقت أمثال هذه الحركات فى أجزاء كثيرة من أوروبا والعالم الجديد ، وكانت البرازيل ــ قلب الامبراطورية البرتغالية حينذاك ــ تغلى وتفور،وكان بين ولاياتها المجاهدة للاستقلال الجمهورى ولاية اسمها ريو جراندى دو سول · فذهب غاريبالدى ليخدم هذه الولاية الصغيرة بوصفه قائدا لسفينة صيد مسلحة بها اثنا عشر ملاحا. وقد طاف بشاطىء امبراطورية البرازيل الواسعة مهاجما الشواطىء ، ومعلنا الحرب على طريقة القراصنة ·

وقد قال بعض المؤرخين ان غاريبالدى فى ذلك الوقت وفيما بعد لم يكن خيرا من القراصنة المتقحمين الفخورين بمغامراتهم وأفراد حرب العصابات الذين يحملون السيوف على عواتقهم للايجار ، والجواب الحق

عن ذلك هو نزوعه الشديد الى الحرية ومجاهدة الطغيان وعدم احتفاله بالمال والنفوذ الشخصى ، وقد أحب الحرب حبا فى القتال • وأى جندى مطبوع ليس كذلك ؟ وانما كان يجاهد من أجل الحرية ولأجل القضايا التى يؤمن بها ايمانا متحمسا •

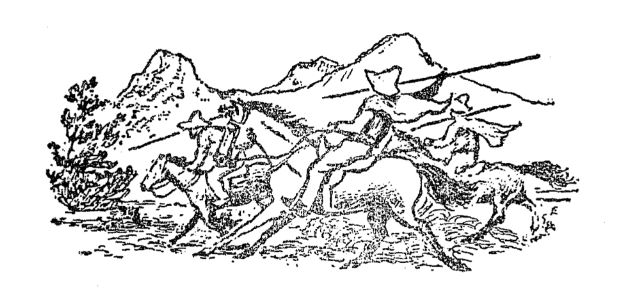
وقد جعلته هجماته وحملاته على الشاطىء يحتك بعصابات من الفرسان الثائرين الذين كانوا يحاربون الجيوش البرازيلية حرب عصابات خاطفة ، وبعد فترة قصيرة كان غاريبالدى يؤجج حربا بحرية برية ، فى بعض الأحيان من على ظهر سفينته الصغيرة التى أسماها متزينى ، وكلما تقدم الزمن كانت أكثر هجماته من فوق ظهر الجواد بين جماعات حرب العصابات ، وسرعان ما أصبح القائد ، شأنه أينما حل ، ولم يكتف بالمشاركة فى أشق الأعمال التى يمكن تصورها ، بل كان يوحى الى رجاله متابعته فى اقتحام أخطار جديدة •

وكان زملاؤه من رعاة البقر الخشنين الذين لم تصقلهم الحضارة ، وكانت حياتهم فوق سروج خيولهم وكانوا خليطا من الاسبانيين والبرتغاليين الهجناء والهنود والزنوج •

وصار غاريبالدى فارسا مقداما لايبالى الأخطار مثل أحسن فرسانهم ، وقد وصفهم بأنهم أقدر من ركب المطايا فى العالم ، وكانوا من صلابة العود بحيث يستطيعون أن يمضوا أسابيع وهم يطوون المراحل فى البرارى الموحشة ، والمستنقعات الواسعة ، يسوقون أمامهم الماشية التى يتغذون منها • وكانوا حينما يتوقفون لتناول الطعام يذبحون حيوانا من القطيع ويشوون لحمه على السفود الذى يتخذونه من العساليج الخضر ، ولابد أن مثل هذا اللحم لم يكن لحما غريضا « طازجا » ، وانما كان لحما جافا غليظا • ولكن الرجال الذين كانوا يعيشون عليه كانوا أغلظ وأخشن ، وكان غاريبالدى كما سنرى يتذكر دائما هذه الطريقة فى تغذية المجاهدين •

وكان رعاة البقر هؤلاء شديدى الوطأة فى حومة النزال ولا يطاق لقاؤهم ، ينقضون على الأعداء ويسرعون الى امتطاء جيادهم الفارهة ، ويحاربون عن قرب بالرماح أو السيوف وفى بعض الأحايين كانوا يستعملون الأناشيط كأنهم كانوا يصطادون النعام أو يسوقون أمامهم قطيعا من الحيوان ، وكانوا جـــد قريبين من الوحشية ، ولذلك مما يسترعى النظر أن غاريبالدى الذى شاركهم فى حياتهم وأساليبهم العنيفة ظل مع ذلك محتفظا بأخلاقه الرضية ، وفطرته الرقيقة ٠

وقد ظل طوال حياته وفيا لأصدقائه شـــديد التعلق بكل من أحبهم ، فهو يحرص عليهم ويصفيهم الود ، ولذلك حزن حزنا شديدا حينما هلك زملاؤه الايطاليون فى الحرب وغرق السفن ولم يجد حوله من يملأ مكانهم ولا من يمت اليه بصلة ، كان رجلا وحيدا ٠



الفصل الثانى

أنيتا والمنفى

كان غاريبالدى قد ظل يجاهد فى البرازيل حوالى ثلاثة أعوام حينما غرقت سفينته على شواطىء سانتا كاترينا ، وهى المقاطعة الواقعة شمال ريو جراندى دو سول ، وكانت سانتا كاترينا كذلك فى ثورة على امبراطورية البرازيل ، وكانت معركة ناشبة للاستيلاء على مدينة لاجونا ، وقد بادر الى الاشتراك فيها قائد القراصنة وشياطينه المقاحيم الذين كانوا يحاربون فى البر والبحر ، وسقطت لاجونا فى يد الثائرين ، ورحب سكانها الجمهوريون بغاريبالدى وعدوه محررهم ، وأقاموه أميرا على الجزء الصغير من الأسطول الامبراطورى الذى استولوا عليه ، وجعل مقر قيادته فى السفينة ذات الشراعين ايتاباريكا .

وقد قتل فى المعركة كثيرون من أعز أصدقائه الايطاليين عليه ، أمام عينيه ، فشاب حزنه على فقدهم فرحته بالنصر ، وبينما كان يتمشى على ظهر السفينة واجما مهموما وهو يفكر فى مصرع هؤلاء الأصدقاء شرع يلقى نظرات على الشاطىء من مقرابه (التلسكوب) فأبصر على تل بارا المرتفع شابة أثر فى نفسه جمالها ، برغم أنه كان يراها من مسافة بعيدة ، وفى التو واللحظة أصدر أمرا بانزال الزورق ، وأخذ هو نفسه يجدف قاصدا الشاطىء •

وذهب غاريبالدى دون أن يلوى على شيء الى المكان الذى رأى فيه الفتاة الحسناء ، وقد لمحت الفتاة الربان الوسيم وهو قادم الى الشاطىء وأخذت تراقبه • ومن المؤكد أنها كانت تعرف من هو ، لأن اسمه كان ذائعا فى تلك الشواطىء مقرونا بأخبار مغامراته ، وقد حارب من أجل حرية بلادها • وسرعان ماتم التعارف بينه وبين التاجر ريبيراس الذى دعا البطل الى زيارة بيته ، وكانت الفتاة التى أحضرت القهوة ــ القهوة رمز الاكرام البرازيلى ــ هى نفسها الفتاة التى جاء غاريبالدى باحثا عنها ، لقد كانت أنيتا ابنة ريبيراس البالغة من العمر الثامنة عشرة ، حسناء رشيقة ، صبيحة الوجه ، لها عينان سوداوان ، وشعر فاحم ، وقوام ممشوق فارع كقوام نساء الأمازون المحاربات اللواتى كأنهن ولدن فوق سروج الخيل ، ولم تكن الفتيات الأوروبيات من هذا الطراز ، ولا يبدو فى عيونهن الاقدام المصمم الذى رآه غاريبالدى فى عينيها • قال غاريبالدى فى ذكرياته عن هذا اللقاء :
« لقد ظللنا كلانا مأخوذين صامتين ، ينظر كل منا الى الآخر مثل انسانين لم يكن هذا أول لقاء بينهما ••• »



كانت الفتاة التى أحضرت القهوة هى نفسها الفتاة التى جاء غاريبالدى باحثا عنها .

لقد رأت رجلا قد طارت شهرته بوصفه البطل فى جهاد بلادها لنيل الحرية ، رجـــلا له رأس فخم ، وشعر ذهبى ، ولحيـــة وعينان زرقاوان عميقان ، فوقفت كالمسحورة . وكانت أولى الكلمات التى سمعتها قوله فى صوته الخفيض الرخيم : « ينبغى أن تكونى لى » . وكان يتحدث بالايطالية لأنه كان قليل المعرفة باللغـــة البرتغالية ، ولكنها أدركت من نبرات صوته وحدها ـ كما كتب بعد ذلك ـ « أنه قد قطع على نفسه عهدا وأصدر حكما لا يستطيع نقضه سوى الموت ».

وتحول حسن ضيافة ريبيراس الى عداء وخصومة ، فقد ساءته جـــرأة غاريبالدى وصراحتـــه المكشوفة ، وكان قد وعد رجلا آخر بالزواج من أنيتا جريا على الطريقة اللاتينية المعهودة ، ولم تكن أنيتا تحب هذا الرجل ، ورفض أبوها أن يحلها مما ارتبط به، ولكنها كانت مطبوعة على الجهاد نزاعة الى الاستقلال مثل غاريبالدى نفسه ، ولذلك آثرت المسلك الوحيد الملائم لطبيعتها ، فهربت من أبيها ومن اخوتها الذين أمروا بحبسها فى حجرة مغلقة بعد ليال قلائل وانتظرت على الشاطىء ، وجاء غريبالدى الى الشاطىء وحملها الى السفينة تحت حماية المدافع ، ولم يحدث من قبل مثل هذا الهرب الرومانسى ؛ فقد شاركته فى مصيره ـ لا بوصفها زوجته فحسب ، بل كذلك بوصفها رفيقا فى حمل السلاح والجهاد ـ ومن ذلك الحين ظلت الى جانبه فى البر والبحر ، وكما قال عنها : « لا تقل عنى تحمسا لقضايا الأمم المقدسة وحياة الاقدام والمخاطرة » .

ونستطيع أن نفهم الكثير عن غاريبالدى من هـــذه الكلمات ، ونستطيع أن نتحقق من أنه ان لم يكن قد ألهم باخلاص ايمانه بالحرية وميل الانسان الى المحاربة من أجلها ، فانه كان يصبح فى الحقيقة من القراصنة المقاديم .

وبدأ شهر العسل لغاريبالدى مع أنيتا بمعركة ضربت فيهـــا سفن الأسطول الامبراطورى سفينة غاريبالدى بالمدافع من مرمى قريب، وسقطت قنبلة مدفع على مقربة من أنيتا فأصابتها وأكبتها فاقدة الوعى فوق كومة من جثث القتلى ، وحينما اقترب منها غاريبالدى نهضت واقفة واستأنفت الجهاد • وكانت تحارب كأحد الرجال؛ فتحشو السلاح وتطلق النيران من المدافع مصوبة نحو الهدف ، ولما هبطوا الشاطىء لشن الغارات كان مجال الحرب أمامها أكثر اتساعا وأشد ملاءمة لها ، فقد كانت تجيد ركوب الخيل كأبرع الفرسان من رعاة البقر ، وكانت طوال حياتها تمتطى الجياد الأرنة السوابح ، وتباشر الصيد والمطاردة واطلاق الرصاص ، وكانت دائما الى جانب زوجها ورجاله ، وفى بعض الأحيان كانت تقودهم فى المعركة ، وظلت مع ذلك امرأة رقيقة حسناء لا يعادل شجاعتها سوى حبها لغاريبالدى ، ولم يكن أى خطر ـ بالغا مابلغ ـ يستطيع أن يبعدها عن جانبه •

وحوالى هذا الوقت تحول تيار الحظ عن الثوار ، وعانى رجال غاريبالدى الهزيمة فى معركة برية وأسرت الجيوش الامبراطورية أنيتا واعتقدت أن غاريبالدى قد قتـــل فى المعـــركة وطلبت أن يؤذن لها بالبحث عنه ، وتصور هذه العروس الحسناء الشابة تشق طريقها بين أكداس الجثث ، وتقلب بقايا القتلى ناظرة فى كل وجه متوقعة ـ وقد احتواها الجزع ـ أن تجد وجه زوجها ، ولكنه لم يكن هنـــاك فقد لاذ بالفرار ، وهى كذلك ستلحق به •

وتسللت من حراسها واختفت فى الأدغال ، وهناك حصلت على جواد غمر من أحد المزارعين ، وانطلقت به وحدها ، وطوت مسافة تبلغ ستين ميـــلا فى احدى الغابات الاستوائية ، وفى صـــحراء مجهولة المعالم ، ولم تحمل معها طعاما ، ولم تتوقف لالتماس الراحة • وخاضت أنهارا زاخرة طامحة العباب مستمسكة بجوادها ، ولم تلو على شىء والقوم الذين شـــاهدوها وهى تعدو على جوادها كالبرق الخاطف

خالوها من اناث الشياطين ، وبعد أربعة أيام وصلت الى مدينة آمنة ، وهناك لقيها زوجها ·

وكانت لا تزال أمامهما أخطار ، ولكن أنيتا قابلتها بقوة امرأة من نساء الأمازون وشجاعتها ، ولم يصدق هذا الوصف قط على امرأة كما صدق عليها ، وقد وضعت طفلها الأول فى البيداء التى كانت هى وجيوسبى يطوفان فى أرجائها · وقد أخفقت ثورة ريو جراندى وأصبح الغاريبالديون لاجئين تطاردهم الجيوش الامبراطورية ، وقد أسميا ولدهما باسم مينوتى · وقد جاريا فى هذه التسمية نزعتهما فى الخروج على العرف التى كانت من مميزاتهما ؛ فالطفل الرومانى الكاثوليكى يسمى عادة باسم قديس من القديسين · ولكن الغاريبالديين أسميا طفلهما باسم شيرو مينوتى وهو اسم بطل ايطالى شاب قتل فى ثورة سنة ١٨٣١ ·

ولما بلغ عمر الطفل اثنى عشر يوما كان على الأسرة أن تهرب طلبا للنجاة بحياتها ، فقد كان العدو قد اقترب من الاطباق عليها ، وظلت الأسرة مدة ثلاثة أشهر وهى تتجول فى غابات الأمازون متحرية البقاء فى حدود الأدغال المتأبدة ؛ فقد كانت هذه هى الطريقة التى لا مناص من اتباعها للاختباء من الجيوش البرازيلية التى أخمدت الثورة وأخذت فى مطاردة فلول الثائرين · وكانت أنيتا تحمل طفلها فى السرج ، وحينما كانا يضطران الى خوض أحد مسايل المياه كان والده يعلقه بمنديل فى عنقه ويحاول أن يظل الطفل ينعم بالدفء فوق صدره ، وكان بقاء الطفل على قيد الحياة من المعجزات ·

وشقا طريقهما جنوبا الى جمهورية أرجواى ، ورأى غاريبالدى أنه لن يستطيع مواصلة هذه الحياة الشاردة ومعه زوجة وطفل ، ولذلك عقد العزم من أجلهما على الاستقرار فى مونتفيديو عاصمة

أرجواى ، وهناك حاول أن يعمل الشىء الوحيد الذى لم يكن يصلح له ولا يحسنه ـ وهو أن يكون انسانا عاديا من رجـــال الأعمال الذين يؤثرون السلامة ـ ولكنه أخفق فى ذلك ٠

لم ينجح فى هذه المحاولة ؛ فقد أراد أن يكون دلالا للسفن وأن يعمل مدرسا للرياضة ، وحاول أن يكون مهندسا ولم يوفق فى كل هذه المحاولات ، واستولى عليه السأم ، وحدث حينذاك شىء أتاح له فرصة استرداد نفسه ٠

فنحو الجنوب عبر نهر ريو دى لابلاتا من اقليم أرجواى الصغير كانت تمتد بلاد الأرجنتين التى كان يحكمها حاكم بأمره اسمه روساس وفجأة غزا روساس أرجواى قاصدا أن يبتلعها ، ففزع أهل أرجواى الى الملاح الذى يعيش بينهم ، وسألوه المساعدة فى تنظيم أســـطول واعداده للحرب ٠

وكانت الخطوة الثانية من تفكير غاريبالدى ، وثبت أنها كانت خطوة جد هامة ، فقد كانت هنـــاك جالية كبيرة من الايطاليين الذين يعيشون فى مونتفيديو ، وكان الكثيرون منهم منفيين من ايطاليا لمثل الأسباب التى نفى من أجلها غاريبالدى ، فحرض هؤلاء الرجال على أن يكونوا فرقة وأن يكون هو قائدها ليحاربوا دفاعا عن أرجواى، فسارع الايطاليون الى التطوع ، وحاربوا مستبسلين الى حد أن روساس عجز عن دخول مونتفيديو ، وبعض هذه الفرقة جعله يحاصر المدينة مدة سنوات حصارا غير مجد ، وغيرهم كانوا يصطادون جيوشه فى البرارى المقفرة ويهزمون فى المعركة الجنود المدربين الذين كانوا يفوقونهم عددا، وكانوا يستعملون طريقة الفرسان من رعاة البقر الذين تجمعوا حول غاريبالدى ليحاربوا معه ٠

وكان أعضـــاء الفرقة الايطالية مدنيين يحاربون من أجل حرية البلاد التى آوتهم ، وكانوا لا يتقاضون أجرا ، وكان رداؤهم القميص الأحمر الذى اشتهر بعد ذلك وصار له شأن ، وقد كان اتخاذ القمصان الحمر من قبيل المصادفة ، فقد أصر غاريبالدى على تجهيز رجاله بأقل مايمكن من النفقات ، وكان فى أحد مخازن مونتفيديو مجموعة كبيرة من القمصـــان المصنوعة من الصـــوف الأحمر وقد أعدت لبيعها فى الأرجنتين للعمال الذين هم فى مذابح الماشية التى كانت حينذاك كما هى الآن المهن الرئيسية هنالك ، ومن شأن القمصان الحمر أن تخفى العمل الدموى الذى يقوم به العمال وهم يرتدونها ٠ ولكن بعد نشوب الحرب توقفت التجارة مع الأرجنتين ولذلك اشترت حكومة أرجواى مجموعة القمصان برمتها بثمن زهيد وجهزت بها الفرقة الايطالية ٠

وكانت القمصان الحمر فضفاضة ، ولهذا السبب وحرصا على حرية الحركة كان غاريبالدى ورجاله يلبسونها غير محكمة ولا مشدودة فوق سراويلهم ، وكانوا يضعون فوق رءوسهم «البنق» المشهور الذى اقتبسه غاريبالدى من رعاة البقر ، وكانوا يستعملونه عباءة ودثارا ، وكان يصنع من الصوف الكثيف الشبيه باللباد ، وكان لونه رماديا يميل الى البياض ٠

وسرعان ماذاعت شهرة القمصان الحمر كما كانت تسمى الفرقة الايطالية،وعبرت هذه الشهرة المحيط الى ايطاليا وصارت فخرا ومناط أمل للوطنيين الذين كانوا يعملون فى الخفاء وينتظرون اللحظة المناسبة ليضربوا ضربتهم من أجل الحرية ٠ وكان غاريبالدى يتحين الفرص ، وقد تجاوز مرحلة الشباب ، وأصبحت عليه تبعات ، فله زوجة معجبة به لا تشكو تعبا ولا فقرا ، وثلاثة أطفال ، فبعد مينوتى ولدت له تيريسيتا ، وولد آخر أسماه ريكشيوتى وهو اسم أحـــد الوطنيين الشجعان الذين قتلوا فى ثورة غير ناجحـــة اشـــتعلت فى نابولى سنة ١٨٤٤ ٠

والواقع أنه لم تكن هناك ضرورة فى أن يظل غاريبالدى وأسرته معدمين ، وكان يستطيع الحصول على المال ، ولكنه كان لا يسعى اليه ، وهو لا يستطيع كسب المال بمباشرة المهن السلمية ، ولا يقبله حينما تمنحه له الحكومات لقاء جهاده وبلائه فى الدفاع عن حوزتها ، ولما رأى الوطنيون الأرجوايون غاريبالدى يرتدى الثياب الخلقة وأسرته تعوزها الضروريات مثل الشمع أرغموه على قبول مبلغ متواضع (قرابة ١٢٥ من الدولارات أى نحو ستين جنيها) من وزارة الدفاع ، وكان هـــذا المبلغ هو كل ماقدم لغاريبالدى ، وقد تصدق بنصفه لأرملة قال انها أحوج اليه منه .

ومثل هـــذا الرجل الذى كان يلبس كرجال فرقته بلا أدنى تمييز ، والذى كان جميـــع سكان مونتفيديو أصدقاء له كان معبودا للرجال الذين كانوا يحاربون تحت رايته ، وقد كان شديدا لا يرحم فى ساحة الحرب ، حريصا على مراعاة النظام فى الميدان وتحت النيران، ولكن كان فى غير ذلك أكثر الناس بساطة وأرقهم حاشية ، وكانت له موهبة تتجاوز المألوف على أن يبث فى رجاله وأتباعه ليس فقط شجاعته بل التعلق بمثله العليا كذلك .

وكان يخوض الحرب فى أرجواى وعينـــاه متجهتان الى بلاده الحبيبة ايطاليا ، وكان على اتصال بزملائه هناك ، ومع متزينى فى لندن ، وكان يعلم وهـــو بعيد عن ايطاليـــا فى برارى جنوب أمريكا وقفارها أن الثورة كانت تتحرك تحت قبضات الذين خنقوا الحرية فى الأجزاء المتناثرة من ايطاليا ، وكانت ايطاليا فى دورها ترقب الحرب التى يقوم بها القمصان الحمر فى العالم الجديد ، وكان هؤلاء الايطاليون يحاربون كالشياطين من أجل الحرية ومن أجل حبهم لقائدهم الشجاع. وقاد غاريبالدى الفرقة الايطالية الى المعركة حاملا علما أســـود فى وسطه بركان ، وحسب كلماته كان هذا رمزا لايطاليا الحزينة التى تشتعل فى قلبها النيران المقدسة .



الفصل الثالث

غاريبالدى والقمصان الحمر

الخريطة بصفحة ٢٨ والخريطة بصفحة ٢٩ تظهران لك المشكلة التى واجهت الوطنيين الذين وقفوا حياتهم على مثل أعلى هو ايطاليا الحرة المتحدة ؛ فمنذ عهد الرومان ، ومنذ عهد غزوات البرابرة ، ومن العصور المظلمة وعهد الاحياء ، ومنذ عهد الحروب النابليونية ، ورثت ايطاليا الانقسام والاحتلال الأجنبى اللذين جعلا الحذاء الايطالى صورة مقسمة الى أجزاء غير متساوية متغيرة ، وجعلا حال أهلها مع حكامهم أحسن قليلا من حال الأسرى والسجناء .

فأولا فى الجزء الشمالى الغربى من أعلى الحذاء ترى مملكة بدمونت المتاخمة لفرنسا وسويسرا وجزيرة سردينيا الكبيرة التى كانت جزءا منها ، وكانت عاصمة هذه المملكة تورينو وحاكمها شارل ألبرت من سافوى ، وهو الملك الذى نفى غاريبالدى سنة ١٨٣٤ . وكانت هذه المملكة هى الدولة الوحيـــدة الايطالية الحقيقية التى قدر لها أن تمتد أطرافها بارادة الشعب نفسه حتى تصبح ايطاليا الحديثة .

وفى شرقى بدمونت المقاطعتان الايطاليتان الجميلتان الغنيتان لمباردى وفينيتيا ، وهما تمتدان من ميلان الى فينيسيا ، ومنذ سقوط نابليون فى سنة ١٨١٥ كان هـــذا الجزء من ايطاليا كله قد ابتلعته الامبراطورية النمساوية ، وقبل ذلك كان نابليون قد أخضعه ، وقبل عهد نابليون اقتطعته والتهمته اسبانيا والنمسا وفرنسا وكل غاز حاول بسط سيطرته على أوروبا .

وفى جنوب لمباردى وغربها ثلاث دوقيات ، كانت من الوجهة النظرية مســـتقلة ، ولكنها فى الواقع كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بشبكة النمسا الحديدية ، وكان الذى يدخلها فى نسج هـــذه الشبكة الضعف والخوف وسياسة أسرة الهابسبرج العائلية ، وهى تزويج بناتها وأبنائها لرؤساء الحكومات التى تريد الأسرة أن تحكمها ، وكانت هذه الدوقيات هى بارما ومودينا ولوكا .

ويتلو ذلك أرشدوقية توسكانيا وعاصمتها الزاهرة فلورنسا ، وكان حاكم هذه المقاطعة الغراندوق ليوبولد الثانى الذى كان كذلك فرعا من الدوحة الهابسبرجية ، وكانت توسكانيا كذلك فى الواقع من أملاك النمسا .

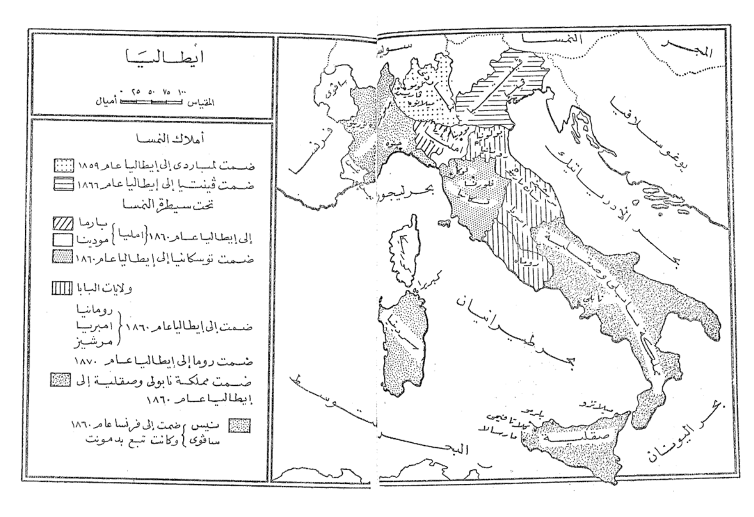
وأخيرا تجىء أعجب أجزاء ايطاليا جميعها ، وهى الولايات الأربع التى اشتملت على ولايات البابا ، وكانت هـــذه الولايات هى رومانيا

ومارشيز وأومبريا وروما نفسها ، وقد يبـــدو لنا جد عجيب أن الكنيسة يمكن أن تكون دولة سياسية يحكمها البابا كأنه قد نصب ملكا ، ولكن الحالة كانت كذلك منذ عهد العصور المظلمة التى جاءت فى أعقاب انهيار الامبـــراطورية الرومانية ، وقد ترك سـقوط الدولة الرومانية فراغا ، وكانت القوة الوحيدة المنظمة التى تستطيع أن تملأ هـــذا الفراغ هى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وكان حكمها فظا قاسيا ، وكانت الشرطة تعنف بأهل هذه الولايات وترهقهم الضرائب ويرين عليهم الجهل ٠

وكان الجزء الباقى من ايطاليا يكابد مثل هذه الأحوال السيئة فالنصف الجنوبى من الحذاء وهو يشمل جزيرة صقلية عند أصابع القدم كان يسمى مملكة نابولى ، وكان يحكمه فرع من أسرة البوربون من أصل فرنسى واسبانى وكان اســـمه مثل أسرة الهابسبرج مرادفا للملكية المطلقة والاستبداد السياسى،وكان الجالس على العرش حينذاك فرديناند الثانى الذى كان يطلق عليه رعاياه لقب « الملك بومبا » ، لأنه قتل أهل مسينا جميعهم بضربها بالمدافع حينما ثارت به المدينة ٠

وكان يزيد هذه الصورة المظلمة لوطن مقطع الأوصال راسف فى الاغلال سوءا الطغيان الذى فرض احتماله على سكان مختلف الولايات، ولم يكن هناك فرق يذكر بين حكم النمسا وحكم البابا أو حكم الملك بومبا ، فانه لم يكن لهم مجلس نيابى ولا حقوق سياسة ولا تصويت للانتخاب ، وكانوا يعيشون فى رعب من الجواسيس وكانوا يعتقلون بغير أمر قانونى بالاعتقال ويحبسون دون أن يستمع لهم ويعدمون دون محاكمة ، وقليل من الفلاحين كانوا يملكون الأرض ، وكانوا جميعا يعملون كالعبيد عند النبلاء الأثرياء الذين كانوا يملكون الأرض ٠

وكان المتعلمون فى المدن الكبيرة هم الذين تلتهب فى نفوسهم الثورة الخفية على هذه الأحوال المستفظعة فى الولايات التى يعيشون



أيطـاليـا
المقياس ١٠٠ ٧٥ ٥٠ ٢٥ ٠ أميال
أملاك النمسا
ضمت لمباردى إلى إيطاليا عام ١٨٥٩
ضمت ڤينتيا إلى إيطاليا عام ١٨٦٦
تحت سيطرة النمسا
بارما
مودينا
إلى إيطاليا عام ١٨٦٠ { اميليا
ضمت توسكانيا إلى إيطاليا عام ١٨٦٠
ولايات البابا
رومانيا
امبريا
مرشيز
ضمت إلى إيطاليا عام ١٨٦٠
ضمت روما إلى إيطاليا عام ١٨٧٠
ضمت مملكة نابولى وصقلية إلى إيطاليا عام ١٨٦٠
نيس
سافوى
ضمت إلى فرنسا عام ١٨٦٠ وكانت تتبع بدمونت
النمسا
المجر
فرنسا
سافوى
جنوه
بحر ليجوريا
يوغوسلافيا
بحر الأدرياتيك
نابولى
صقلية
بحر اليونان
البحر
ميلاتزو
بالرمو
كالاتافيمى
مارسالا
كبريرا

بها ، وكانوا محامين وأطباء وأساتذة جامعات وكتابا وأصحاب فن ، وأقســـم أهل ميلانو وفينيتيا على تحرير بلادهم من نير النمساويين، وأقسم أهل بولونيا على تخليص أنفسهم من سلطة البابا ، وأقسم أهل نابولى وصقلية على نبذ طاعة الملك بومبا ، وواجهوا الاضطهاد بشجاعة واباء ، واحتملوا العقوبات الوحشية ، ولم يجدوا من مواطنيهم ظهيرا يشد أزرهم؛ فقد كان كبار الملاك وأصحاب المناصب السياسية السامية يريدون أن تبقى الأحـــوال على ماهى عليـــه ، وكان الفلاحون أخوف وأجهل وأكثر تعلقا بالخرافات من أن يعلنوا المعارضة أو يشقوا عصا الطاعة وكان رجال الأعمال وطلبة الجامعات فى المدن هم السند الوحيد للوطنيين .

وهؤلاء الرجال لم يملكوا حتى القوة التى كان يمكن أن تستمد من اتحادهم التام بعضهم مع بعض ؛ فلقد كانوا من ولايات مختلفة ، وكانت أفكارهم عن ايطاليا التى يريدون خلقها مختلفة ، وكان تفكيرهم فى السبل التى يسلكونها لتحقيق هذا الهدف متباينا ، ولكنهم مع ذلك كانوا يحافظون على اتصال بعضهم ببعض وعلى الاتصال بمتزينى فى لندن ، وكانوا جميعا قد ترامت الى أسماعهم أخبار جماعة القمصان الحمر الذين كانوا يحاربون فى شجاعة بأرجواى وأخبار قائدهم،وكان كل وطنى فىايطاليا ينظر الىغاريبالدى بعين الحب والعطف والاعتزاز، وكان اسمه الوحيد الذى يوحى اليهم جميعا .

وفى أثناء ذلك كانت هناك قوة خارجية عاملة ، وقد عجلت هذه القوة العاملة بالساعة التى تستعر فيها الثورة فى ايطاليا ، وكان ذلك سنة ١٨٤٧ ، فقد سرت الثورة فى أوربا جميعا سريان النار فى الحطب الجزل وهبت جموع غفيرة من الناس تطالب بحقوقها فى الحكم النيابى ، وكانوا يريدون مجالس نيابية يختارون أعضاءها وقوانين تحد من سلطة ملوكهم وأباطرتهم المطلقة،وقد شملت الاضطرابات والانتفاضات

فرنسا وممالك ألمانيا الصغرى وولاياتها وامبراطورية النمسا الشاسعة التى كانت خليطا من القوميات ، واهتزت عروش وهرب حكام ملكيون ، ثم أخذ الحكام الملوك يستردون عروشهم مع تغيير للجالس على العرش فى الأغلب ومع شروط أرغمت الشعوب على قبولها تمنح الرعايا الدستور وحق الانتخاب ٠

وبطبيعة الحال اغتنمت الأملاك التابعة للامبراطورية النمساوية الفرصة لتعلن الثورة ، فثارت ميلانو بحاكمها النمساوى المكروه ، وبعد حرب شعواء استمرت خمسة أيام فى الشوارع طرد من المدينة ، وثارت فينيسيا وأعلنت أنها جمهورية ، ولم تأت سنة ١٨٤٨ حتى كانت ايطاليا جميعها تغلى وتفور بالثورة ، واعتزل امبراطور النمسا العرش ٠ وخلفه الشاب فرنسيس يوسف الذى عاش ليرى قرب نهاية امبراطورية النمسا والمجر سنة ١٩١٦ ٠

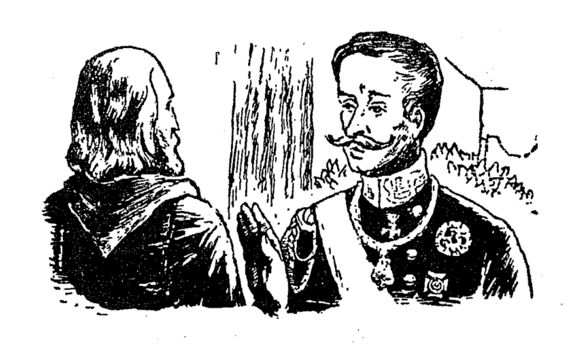
وخاف حكام ايطاليا الحقيقيون والصوريون ، وأدركوا أن خير وسيلة للمحافظة على عروشهم هى أن يمنحوا رعيتهم الدستور قبل أن يثوروا بهم ويحاربوهم ، وحتى بدمونت التى كانت أكثر الولايات الايطالية استنارة لم يكن لأهلها حتى ذلك الوقت حقوق مدنية ، ولذلك أصبح الملك شارل ألبرت ملكا من الملوك الأحرار بدلا من أن يكون حاكما مطلقا ، واتجه الغراندوق ليوبولد فى توسكانيا الاتجاه نفسه فى حذر واحتياط وحتى الملك بومبا فى نابولى وجد نفسه مضطرا الى منح بعض الامتيازات ، ولكن أشد الأمور جميعا اثارة للتعجب هى أن البابا الجديد فى روما بيوس التاسع (الذى يسميه الايطاليون دائما بيونونو) بدأ عهده بعمل اصلاحات جذرية حقيقية فى طريقة الحكم الكرية التى أوسعت الولايات البابوية ظلما وعسفا ٠

وكانت أولى الحركات الثورية فى سنة ١٨٤٧ كافية لاثارة غاريبالدى وهو بعيد فى الجانب الآخر من العالم ، وكان متزينى وغيره

يوافونه بكل ماهو حادث ، وقد بدأ الايطاليون أخيرا يحاربون من أجل حريتهم ، وكان مكان غاريبالدى فى طليعة هذه الحرب ، وقد ظل يحلم بهذه الساعة اثنتي عشرة سنة ، والآن وقد حانت هذه الساعة فانه لم يتوان عن أن يبت فى الأمر ، وشاركه فى هذا البت ستون من رجاله لابسى القمصان الحمر ، وأجمعوا أمرهم على الذهاب جماعة والانضمام الى صفوف المحاربين أينما كانت الحرب .

وقرر بيبينو ـ وقد ظل هذا الاسم الذى تدعو به أنيتا زوجها ـ أن تذهب أنيتا وأطفالها الى نيس ويقيمون هناك فى مأمن مع والدته قبل رحيله ، وفى باكورة سنة ١٨٤٨ نزلت الى البر فى جنوا ومعها الأطفال ، وهناك لم تجد أن حكم الاعدام السابق صدوره على زوجها قد ألغى فحسب بل وجدت جماعة من النـــاس يقابلونها بالهتاف « ليحيى غاريبالدى وأسرة غاريبالدى ! » .

وأبحر القائد نفسه ومعه فرقة القمصان الحمر فى ابريل فى سفينة صغيرة اسمها « سبرانزا » وهى كلمة معناها الأمل ، وكان لهذه الكلمة معنى عميق فى نفوس الرجال الأبطال على ظهر السفينة ؛ لأنهم جميعا كانوا عائدين الى بلادهم معرضين حياتهم للخطر من أجل حرية وطنهم ، وكثيرون منهم استشهدوا فى سبيل هذه القضية ، وواحد منهم عاش ليحارب فى شجاعة مرة بعد أخرى وهو النقيب الشاب مدينتشى الذى كان يحبه غاريبالدى بوجه خاص وكان هـــذا الشاب لغاريبالدى ذراعه اليمنى الذى لا يعتريه الكلال ، وشخص آخر هـــو الزنجى العملاق البرازيلى المدعو أجيار ، وفى كل مساء والشمس مائلة للغروب كانت جماعة الايطاليين المقاديم فى قمصانهم الحمر تتحلق فى ظهر السفينة حول الزعيم وتصلى صلاة المساء متغنية بنشيد وطنى ، ولم يكن هناك صوت يعلو على أمواج البحر أعذب نغما وأجمل فى النفوس وقعا من صوت القائد الذى وصل حبهم له الى حد العبادة والتقديس .



الفصل الرابع

إرهاصات الثورة

منذ مائة سنة كانت الأخبار تتنقل فى بطء ، فغاريبالدى لم يكن يعرف حينما ركب البحر من أمريكا الجنوبية أن ميلانو قد ثارت منذ أربعة أسابيع لتسترد حريتها من النمسا ، ولكن حينما وصلت السفينة سبرانزا الى اسبانيا ـ وهى أول جزء من أوروبا ـ طالعها علم من بها أن ايطاليا ثائرة على سادتها ، وهذه الثورة على النمسا فى الشمال جعلت المتطوعين يأتون من كل فج فى شبه الجزيرة الايطالية لينضموا الى المجاهدين لمحاربة النمسا .

وكان ملك بدمونت شارل ألبرت قد تحرك على رأس جيشه المدرب ليساعد على اجلاء النمساويين عن لمباردى ، وهو لم ير نفسه المخلص فحسب لهذا الجزء من ايطاليا ، وانما رأى نفسه ملكه المنتظر .

ومهما يكن من الأمر فان اللمبارديين أنفسهم وغيرهم من الايطاليين لم يكونوا بحال على اتفاق معه فى ذلك ، فانهم بالاضافة الى خلافاتهم الصغيرة المنوعة كانوا منقسمين الى حزبين كبيرين ؛ حزب الذين يريدون أن تكون ايطاليا مملكة واحدة متحدة منضمة الى بدمونت وحزب الآخرين الذين كانوا يريدون مثل متزينى أن تكون ايطاليا جمهورية مكونة من اتحاد فيدرالى بين الولايات الايطالية ٠

ولم تكن هـذه قاعدة تصلح لتبدأ منها معركة ناجحة لهزيمة النمساويين ، ولو كان الايطاليون قد اتحدوا ووحدوا صفوفهم فربما كانوا قد استطاعوا فى ذلك الوقت أن يظفروا بمزايا ويتخلصوا الى الأبد من النمسـا التى تسومهم الهوان فقد كانت أحوالها مختلة وأمورها فوضى ، ولكن لم يكن الوقت قد حان لذلك بعد ، وفقد شارل ألبرت قوة المبـادأة التى قام بها أهـل ميلانو الشجعان ، وثبت النمساويون أقدامهم فى الحصون الأربعـة المسيطرة على ممر برنر الجبلى الواقع بين ايطاليا والنمسا ، ولم يكن شارل ألبرت موفقا فى حركاته ٠

وقدم غاريبالدى حينذاك ليثبت وطنيته ويقيم الدليل على أنه جندى باسل ورجل عمل لا رجل كلام ، ولم يكن يرمى الى تحقيق مطامع شخصية لنفسه ، وانما كان يريد قبل كل شىء أن تصبح ايطاليا حرة متحدة ، وقد تعلم من متزينى أنه عندما يتحقق ذلك فانه يجب أن تكون ايطاليا جمهورية ، ولكن غاريبالدى ـ على خلاف متزينى ـ لم يضع فكرة صورة معينة سياسية لبلاده فوق مطلبه الأول والمقدم وهو أن تكون ايطاليا جميعها حرة ٠ وكان على أتم استعداد ليضحى بحياته فى أى حرب من أجل حصول ايطاليا على حريتها ٠

ولذلك ذهب الى الملك شارل ألبرت فى معسكره وقدم له نفسه وفرقته من لابسى القمصان الحمر التى اشتهرت فى محاربة النمسا ،

ولكن الملك الأحمق الذى كانت تخطر له فى بعض الأوقات أفكار حسنة رفض خدمة غاريبالدى وظن أنه يكفى العفو عن الرجل الذى حكم عليه بالاعدام بتهمة الخيانة ٠

وكانت الثورة على النمسا فى طريقها الى الجمود والركود لأنها كانت تنقصها القيـــادة الموجهة ويعوزها اتحاد الصفوف ، وتحول غاريبالدى وقد نبذه الملك الى أهل ميلانو وتطوع للحرب فى صفوفهم فعهدوا اليه بالقيادة ، ولم يكن لذلك أهمية تذكر سوى أن لقب القائد لزمه بعد ذلك ، ورخصوا له فى أن يضم المتطوعين ويطارد النمساويين فى الشمال الى البحيرات ومدينة برجامو ، ولكن قبل أن يبدأ غاريبالدى عمله الحقيقى كان جيش شارل ألبرت قد هزم فى معركة كاستوزا ، ولم تمض أسابيع حتى اضطر الى التقهقر الى ميلانو التى كانت قد حررت نفسها بدون مساعدته ٠

وبطبيعة الحال كان أهل ميلانو حانقين ؛ فقد رأوا ملك بدمونت يوافق على هدنة تردهم الى النمساويين المكروهين الذين يمعنون فى اضطهادهم ، وعاد شارل ألبرت الى تورينو يجلله العار وقد فقد كل ماكسبه أهل لمباردى ٠

ولكن غاريبالدى لم يعد الى وطنه ليكون حاضرا مثل هذا الخزى والعار ، فشن حرب عصابات ضد الجيوش النمساوية المتناثرة على حدود الألب السويسرية ، ولكن هذه الحرب لم يطل أمدها ، ولم تكن موفقة ، لأنه لم يكن عنده مؤونة ولا وقت لتدريب الشـــبان الذين انضموا اليه ، ووقف متزينى الى جانبه زمنا قصيرا ، وحدثت حينذاك بينهما أول مشاجرة حول أهدافهما من أجل ايطاليا ٠

وقد لام متزينى تلميذه السابق لأنه عرض خدمته على الملك شارل ألبرت ، فأجاب غاريبالدى بأنه لا يتأخر عن تقديم خدمته لأى

قوة تحارب من أجل تحرير الشعب الإيطالى ، وقد أثبت بذلك أنه كان عمليا أكثر من متزينى ، ولكن كلا منهما كان يقـدر أهميـة الآخر ، وكانت معارك الألب المتفرقة قليلة الجدوى ، ولكنها أظهرت للايطاليين الشماليين طراز غاريبالدى القائد والمحارب ·

فقال قائد بدمونت : « حينما تنشب حرب أخرى فان غاريبالدى هو الرجل الذى نستخدمه فهو ليس رجلا عاديا » ·

وفى أثناء ذلك كان غاريبالدى فى داره فى نيس مع أسرته وبعض ذوى القمصان الحمر ينتظرون جميعا حربا أخرى ·



الفصل الخامس

البابا يهرب من روما

أتيحت الفرصة لتوجيـــه الضربة التالية فى روما ، فقد كان الوطنيون يرتقبون ظهور أى ناحيـــة من نواحى الضعف فى سيطرة الطغاة على ايطاليا وبعد اخفاق الثورة على النمسا عم القلق وساد الاضطراب فى الولايات البابوية ٠

وكان حكم الكنيسة لهذه الولايات قائما على العنف والطغيان ولا يمت الى الدين بأدنى سبب ٠ وكان غير الايطاليين يجدون دائما صعوبة فى فهم هذه الحالة ، فتسعة وتسعون فى المائة من الايطاليين من أتباع المذهب الكاثوليكى ، وقد كانوا كذلك منذ عهد المسيحية

الأول ، وحينما كان الاصلاح الدينى يجتاح أوروبا جميعها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر لم يستطع أن يحولهم عن المذهب الذى دانوا به ، وكانت للكنيسة قوة سياسية كافية لابعاد المصلحين عن ايطاليا واسبانيا وكذلك البرتغال ٠

ولما كان الناس لا يعرفون لهم دينا آخر ، بل انهم كانوا يجهلون حقيقة أنه يمكن أن يوجد دين آخر ، لذلك لم يخطر لهم أن يبحثوا عقيدتهم ، وكان يزيد هذه الحالة رسوخا واستقرارا أن الغالبية كانت تجهل القراءة والكتابة،وكانوا لا يعرفون الا مايتلقونه من قساوسنتهم، وقد تمكن الطغيان من المحافظة على مكانته واستبقاء سيطرته وقوته عن طريق اقامة العقبات فى سبيل جعل الناس يفكرون لأنفسهم ٠

وهكذا كانت الطبقة القليلة المتعلمة فى الولايات البابوية كما فى سائر ايطاليا هى التى تعارض حكم الكنيسة ، وكان أفرادها يحتفظون بدينهم وكانوا يقاومون القساوسة الذين كانوا عملاء للحكومة وكانوا يظلمون الناس من أجل ذلك ، وكان هناك عدد قليل من القساوسة يحملون بشجاعة عظيمة على هذه الأخطاء التى تورطت فيها الكنيسة ، وكانوا يدفعون حياتهم ثمنا لشجاعتهم ، وكان أنبل هؤلاء القساوسة أوجو باسى أحد أتباع غاريبالدى الذين أحبوه وأخلصوا له ٠

وكان الوطنيون الرومانيون يقومون بعملهم فى الخفاء ، وكانوا يعملون بوصفهم أعضاء فى الأندية السرية ، ومات الكثيرون منهم شهداء ، وفى هذه الظروف خلف البابا بيونونو البابا جريجورى السادس عشر الذى كان من أظلم البابوات الذين حكموا الولايات البابوية ، وكانت الاصلاحات الحذرة التى قام بها البابا بيونونو قليلة فضلا عن كونها جاءت متأخرة ، ولذلك أرادت النوادى السرية أن تتخلص منه جملة ٠

ومن ناحيـــة أخرى كانت كل دولة أجنبية تريد أن تحتفظ بسيطرتها فى ايطاليا تحاول أن ترغم البابا بيونونو على أن ينسى تحرريته الحديثة ويبقى الأمور على ما هى عليه ، وهاجمت النمسا مدينتين من المدن الخاضعة له لتريه مكان وقوفها ، وكانت النمسا احدى الدول الكاثوليكية العظيمة فى العالم ، وكان البابا لا يجترىء على الامعان فى تحديها ، وحار فى أمره ، وتراجـــع عن المضى فى محاولاته الاصلاحية على حين كانت الثورة يعلو مدها ويتفاقم حوله خطبها ، وكان زعمـاء الثـــورة يستلهمون المثل الأعلى للجمهورية الرومانية القديمة فى عهد يوليوس قيصر وهو أقصى ما بلغته عظمة الرومان ، وقد أرادوا أن يعيدوا خلق الجمهورية الرومانية ٠

وظهرت بوادر العنف فقتل رئيس وزراء البابا ، وفى نوفمبر سنة ١٨٤٨ لاذ البابا بالفرار متنكرا فى مسوح قسيس عادى بعد أن أخفق فى اخماد الثـــورة ، وعبر الحدود الجنوبية الى مملكة نابولى ، ووضع نفسه تحت حماية الملك بومبا الذى كان أبغض الطغاة الحاكمين فى ايطاليا وأزراهم منزلة فى نفوس الايطاليين ٠

ولم يكن غاريبالدى غافلا بغير عمل فى أثناء وقوع هذه الحوادث، فقد صمم قبل ذلك بأشهر على ألا يفسد عليه أمره ، اذا حانت ساعة العودة الى استئناف الحرب ، سوء التنظيم والتجنيد السريع للشبان الصغار وهما اللذان عاقا حركاته فى غزو الألب ، وكان عدد ذوى القمصان الحمر الذين جاءوا معه فى مونتفيديو من القلة بحيث لا يمكن الا أن يكونوا نواة لقوة محاربة ، وهم يستطيعون تدريب المتطوعين ويمكن الاعتماد عليهم فى المعركة والاستيثاق من أنهم لا يحجمون عن ملاقاة الموت الزؤام ، ولكن غاريبالدى كان يعلم أنه لابد من جمع فرقة محاربة حقيقية حوله ٠

وغادر نيس فى الخريف باحثا عن مكان يبدأ منه الحرب ، كانت هزيمة لمباردى المخزية تحز فى نفسه ، وقد ابتدر الذهاب وهـــو يقصد بتسرعه المعهود أن يهاجم صقلية ، أو أى جزء آخر من أجزاء مملكة الملك بومبا ، ولكن حينما وصل الى ليجورن فى الشاطىء الغربى لتوسكانيا لقيه بعض الوطنيين العقلاء وأخبروه عن السبيل الأقوم لخدمة قضية بلاده ٠

وفى بولونيا وما حولها وفى مقاطعة رومانيا التى تعد بولونيا أهم مدنها كان هناك رجال أشداء ، ذوو حفاظ ، أذكياء ، يريدون أن يتطوعوا ، وهم مستعدون للحرب من أجل حرية بلادهم متى حان وقتها ٠ وقد كانت مدينة بولونيا دائما بجامعتها القديمة وماضيها العلمى ومقاومتها للطغيان مهبطا للتفكير وركنا من أركان المعرفة ، ولم يكن هناك جزء من أجزاء الولايات البابوية أصلب منها مكسرا وأشد امتناعا على أساليب القسر والارغام ، وبهذه المدينة كان القسيس الثائر أوجاباسى يهاجم البابا فى وعظه جهارا وقسيس آخر شجاع اسمه الأب جافاتزى هو الذى قاد الناس حينما اندفعوا للترحيب بغاريبالدى وتحية رجالهم وهم ينضمون الى فرقته ٠

وكانت منطقة الولايات البابوية فى حالة تفكك وانحلال واضح سمح لغاريبالدى أن يجوس خلالها كما يشاء ويدخل مدنها : رافنا وزيمينى وغيرهما،وعلى طول الطريق كان الرجال ينضمون الى فرقته، وكان لا يخطب داعيا ولا يستحث أحدا على الانضمام وانما كان يكتفى بأن يظهر ، وكان يكفى النظر الى قائد ذوى القمصان الحمر ليوحى الى قلوب الرجال حبه والثقة به ، وكان رقيقا لينا فى معاملته ، وكانت أساليبه وعاداته هى أساليب المزارعين وعاداتهم ، وكانت قدرته على احتمال الصعاب لا تحد ، ولم يطلب الى أى انسان أن يحتمل شيئا لا يشترك هو معه فى احتماله ، ولم يكن عنده رصيد من المال ليدفع

منه لرجاله ، أو ليعد لهم المعدات اللازمة • ولم يكن عنده مايقدمه سوى سحر قيادته ووعده بالموت فى سبيل قضية تحرير ايطاليا اذا استلزم الأمر •

وأمضت القوة أشهر الشتاء القاسية ـ والشتاء فى ايطاليا شديد القر ـ متنقلة فى الولايات البابوية وعينها متجهة صوب روما ، وكان الموقف بها متأزما ، فقد أعلنت هناك الجمهورية وأنشىء مجلس نيابى، وغاريبالدى نفسه ذكر اسمه بين أعضائه ، وقد اكتفى بالقيام برحلة قصيرة ليأخذ مقعده ثم عاد أدراجه الى فرقته ، وفى كل وقت كان ينضم الى الفرقة متطوعون جدد ، ولم يكونوا جميعا من أحسن الطرز، وكانوا فى الأعم الأغلب من أصحاب الحوانيت والعمال والطلبة من المدن ، وكانوا بغير سترات أو أسلحة جيدة وكانوا كذلك جياعا ، وكان نظام القائد الصارم يقتضى توقيع عقوبة القتل باطلاق الرصاص على كل من يضبط متلبسا بجريمة النهب أو سرقة الطعام ، وكانت الفرقة تطعم بما يقدمه لها الشعب •

وكان قلب غاريبالدى رقيقا الى حد أنه كان يألم اذا رأى حيوانا جريحا • وكان يبكى حينما يسقط رجاله قتلى فى المعركة ، ويواسيهم مواساة الوالد حينما يصيبهم جرح ، وكان يفرض عليهم قواعد قليلة، ولا يفرض نظاما حربيا الا فى حومة القتال • ولكنه كان لا يسمح بحال أن يصبح رجاله لصوصا وقطاع طرق ، ولو انهم فى الأحوال السيئة التى اكتنفتهم كانوا يظهرون بمظهر الغوغاء فى الأسمال البالية •

وتتابعت الحوادث مسرعة ، ووصل متزينى الى روما فى مارس ليكون على رأس الحكومة الجمهورية • وكان يأمل أن يتراحب نطاق الجمهورية الرومانية بالتدريج حتى يشمل ايطاليا جميعها، وتوسكانيا

كذلك ثارت على غراندوقها وأعلنت النظام الجمهورى ، وفى هذا الوقت نفسه صمم الملك شارل ألبرت فى الشمال على نقض الهدنة التى أقرها مع النمساويين ، وكان ضميره قد أنبه أشد تأنيب حينما رأى ماعاناه أهل ميلانو من ظلم النمساويين • وقد هاجم النمساويين فى غير تبصر ، فأسرعوا عبر حدود لمباردى الى بدمونت وهزموا شارل ألبرت هزيمة شنعاء فى معركة نوفارا ، واضطر الملك الحسن القصد ولكن السيىء التدبير الى أن ينزل عن العرش ويتسلل بعيدا ليموت خارج بلده كسير القلب •

وارتقى العرش مكانه ابنه فيكتور عمانويل ، وبالرغم من أن الملك الجديد قد بدأ حكمه تحت وطأة شروط مذلة فرضتها النمسا فان حكمه مع ذلك كان بداية عهد جديد ولم يكن فيكتور عمانويل ضعيفا سيىء التصرف كأبيه ، كان نزاعا الى الحرية ، وكان حازما ، وقد استعان برجل أكثر منه حزامة وبعد نظر ، وهو رئيس وزرائه العظيم كافور •

وانتصار النمساويين على بدمونت قوى قبضة النمساويين على ايطاليا وجعلهم يتجهون الى الهدف نفسه الذى كانت متجهة اليه الدول الكاثوليكية الأخرى ؛ وهو سحق الجمهورية الرومانية الضعيفة واعادة البابا الى العرش البابوى • وكانت هذه الدول جميعها تريد أن تظفر بالفخر الدينى ، ولكن الأسباب السياسية كان لها المكان الأول فى توجيههم هذه الوجهة •

وبعد ثورات السنة الماضية واضطراباتها • ثبت الملوك أقدامهم ووطدوا مكانتهم ، وشددوا قبضتهم على الرعيـــة • وكانوا أعداء للديمقراطيـــة أينما كانت ، وقد تعودوا مدة قرون أن ينظروا الى ايطاليا ، لا باعتبارها أمة وانما باعتبارها فريسة لهم • والآن فان

روما ـ وهى صميم قلبها ـ قد أصبحت جمهورية ديمقراطية ، أى انها اتبعت النظام السياسى الذى يمقتونه أشد مقت ويخشونه أشد خشية ، وتحالفت اسبانيا ونابولى والنمسا وفرنسا على وضع حد لهذا وكانت الجمهورية الرومانية تقف وحدها ضد العالم ٠

وفى ريتى على مسافة قريبة كان غاريبالدى مرابطا بقوته التى أصبح عددها ألفا وثلثمائة رجل ، وسافرت أنيتا من نيس فى ذلك الوقت لتزور زوجها وعادت الى دارها تاركة غاريبالدى فى حـــذر خشية تهديد الملك بومبا بالغزو من الجنوب ، ولكن الهجوم بدلا من ذلك جاء من ناحية البحر ومن مسافة أربعين ميلا شمال غربى روما ، فقد نزل الى البر عشرة آلاف جندى فرنسى فى يوم ٢٥ من ابريل وبدأت الزحف على المدينة المقدسة ، وأرسل وزير حربية الجمهورية الرومانية الى غاريبالدى وفرقته الايطالية الأولى ٠



الفصل السادس

أول انتصار لغاريبالدى

وبعد مضى أربع وعشرين ساعة وجيش نابليون الثالث الفرنسى قادم من الغرب نهض أهل روما جميعا للترحيب بحماتهم ، ونفر رجال الأعمال والعمال وسكان الأحياء القذرة الحقيرة فى جانب التيبر الى ناحية الكورسو وهم يصيحون : « لقد أتى ! لقد أتى ! » .

وفى وســـط الطريق الواسع احتشدت جموع المحاربين وهم ينظرون بعيون مستوحشة كمـــا وصفهم نحات انجليزى كان يقف بينهم ويرقب المشهد التاريخى ، كان بعضهم على ظهور الجياد ، ولكن

الغالبية كانوا يســيرون على الأقدام ، وكانت الرجال صــلاب العود لوحت وجوههم حرارة الشمس مرسلى اللحى غبرا شعثا وعلى رءوسهم قبعات سوداء مخروطية الشكل يهفو فوقها ريش ، وكانت هـــذه القبعات تســـتر شعورهم الطويلة الخشنة ، وقد أعطتهم الجمهورية الشابة أخيرا كسى عسكرية من نوع ما ، وكانت مكونة من معطف فضفاض أسود اللون وقبعة خضراء ، وكان هؤلاء هم الجنود العاديين ٠

وكان الضباط الذين جاءوا عبر الدنيا لمواجهة هـــذه الساعة يلبسون القمصان الحمر وشعورهم مرسلة وهى علامة الغاريبالديين ، واحتشدت الجموع حول الزعيم كما وصف لنا الكثيرون من شاهدى العيان وكان غاريبالدى على جواده الأبيض فى وسطهم لا فى الطليعة ، وقد التف فى بنقة ، وكان يسير خلفه تابعه الأمين العملاق الزنجى من أمريكا الجنوبية « اجيار » على جواد أدهم مطهم ٠

وجن جنون الناس واستطارتهم الفرحة ، وهؤلاء الذين كانوا غير متحمسين فى أول الأمر للجمهورية ـ وكان هناك كثيرون منهم ـ عدتهم حمى الوطنية ، وعرف الكثــيرون لأول مرة كيف يشعرون بقوميتهم ، وكانوا مستعدين أن يواجهوا الموت لاثبات ذلك ، ولهم الآن زعيم مجاهد ورئيس حــكومة يحترمونه ويحبونه ، لقـــد ألهمهم غاريبالدى ومتزينى وأثارا فى نفوسهم الشعور بالعزة والكرامة ٠

وتجمع سكان المدينة وشمروا عن سواعدهم وأخذوا يحفرون فى الشوارع ويبنون الحواجز والسدود ، واشتركت فى الدفاع عن قضية الجمهورية جميــع طبقات الشعب حتى الســيدات النبيلات والأغنياء الذين ألفوا الراحة والبطالة ٠ وعسكر غاريبالدى وفرقته فى ساحة دير حيث كان يستطيع أى انسان أن يدخل ويحصل على معلومات ، وكان القائد يخرج ويمر بالشوارع المزدحمة ويشجع الذين يحفرون الأرض ويضم الرجال المتلهفين على الانضمام الى الفرقة ٠

وقد حدثنا مصور شاب عن الشعور الذى خالجه فقال : « لم تكن عندى فكرة التطوع فى الفرقة ، وانما ذهبت من قبيل حب الاستطلاع ولكن آه · انى لن أنسى ذلك اليوم حينما رأيته على جواده الأبيض فى السوق بصورته النبيلة ، ووجهه الهادىء الحنون ، وجبهته العالية ، وشعره الخفيف ولحيته ، وقد ذكرنا برأس مخلصنا الموجود فى قاعات عرض الصور ، وهكذا كان يقول كل انسان ، ولم أستطع المقاومة ، وذهبت وراءه وألوف من الناس عملوا ماعملت ، وكان عليه أن يظهر فحسب لنعبده جميعنا » ·

ولم يضع غاريبالدى وقتا طويلا فى مثل هذه الأشياء ، كان يريد أن يقطع برأى فى معرفة المكان الذى يدافع فيه عن روما ، وكان الجانب الغربى من المدينة يحده حائط يحيـــط بالفاتيكان والمرتفع الطويل الذى كان يسمى « تل جانيكالم » ، وكان هناك أربعة أبواب فى السور ، وثلاثة منها لم تكن لها أهمية خطيرة ، وكان أحد هـــذه الأبواب قد سد قبل ذلك بأعوام ، ولكن الخرائط الفرنسية الحربية لم توضح ذلك،وقد ذهبت عبثا الجهود الأولى لاختراق الباب غير الموجود، وكان المدافعون قد وضعوا المدافع فوق الأســـوار لتغطية البابين الآخرين فى ناحية الشمال ·

وكان الباب الرابع ـ وهو باب بورتاسان بانكراتزيو فى الجنوب الغربى ـ هو الذى سيدافع عنه · وكانت الأرض المرتفعة فى ناحية الغرب خارجة أعلى من السور نفسه ، واذا كان الفرنسيون يستولون على هذه المرتفعات ويضربون المدينة بالمدافع منها فان السور يصبح عديم الفائدة ويصبح الدفاع عن روما غير ميسور ·

ورأى غاريبالدى أن عليه أن يثبت قدمه من فوق هذه المرتفعات خارج السور ، وأن يقوم بذلك قبل أن يسبقه اليها الفرنسيون ،

وكانت فوق هذه المرتفعات مجموعة من المنازل الجميلة وحولها حدائق غناء تملكها أسرات نبيلة • وكان بينها فيلا بامفيلى وفيلا كورسينى وخارج الباب مباشرة كان هناك منزل يسمى فاسللو ومعناه بالايطالية السفينة ، وكان هـذا المـنزل مستطيلا وضيقا كالسفينة ، ومن ثم اسمه •

وكانت فرقة غاريبالدى متيقظة متأهبة حينما وصل العدو الى أسوار روما بعد نزول الفرنسيين الى البر بخمسة أيام ، وكان عند غاريبالدى علاوة على فرقته جيوش أخرى ، منها فرقة الرماحة ـ وهم فرسان الحرب الخاطفة تحت قيادة قائدهم الهمام انجيلو ماسينا ، وكان ماسينا شابا وطنيا غنيا من بولونيا وقد أنشأ فرقة الرماحة هـذه وزودها بالسلاح على نفقته • وقد نمت معرفته بغاريبالدى خلال أشهر الشتاء السالف وكان شديد الاعجاب به،وكانت فرقة ماسينا الرماحة قد انضمت لفرقة القائد التى كان معظمها من المشاة •

واذا كانت هناك ثلاث جماعات أخرى من المحاربين ، وكان خيرها فرقة الشرطة الحربية وجيوش البابا التى ثارت على حاكمها ، وكان يتلو هؤلاء جماعة المتطوعين البالغ عددها ألفا وخمسمائة وقد جاءوا الى روما بعد أن حاربوا النمسا فى سبيل قضية لمباردى الخاسرة ، وكان وراء هؤلاء جميعهم أهل روما العاديون ، وهم فريق من الرعاع غير المدربين تجمعوا عند الأسـوار مسلحين بالسـكاكين والخناجر والحراب وبنادق الصـيد القديمة ، وفى الواقع بكل شىء يمكن أن يقاتل به •

وأخيرا فى التاسع والعشرين من ابريل اشتعلت روما حماسة بوصول فرقة الرماة اللمباردية الرائعة المفاجىء تحت قيادة الماجد الغطريف لوشيانو منارا الميلانى؛فكيف جاء هؤلاء المحاربون البارعون الى روما ؟ انهم بعد أن أظهروا شجاعة ممتازة فى ثورة الأيام الخمسة

فى ميلانو ، وأبلوا بلاء حسنا فى محاربة النمسا ، وتجرعوا ذل هزيمة نوفارا التى كان سببها ماتورط فيه الملك شارل ألبرت من أخطاء ، آثروا أن يظلوا فى بدمونت على العودة الى عبودية النمساويين ، وكان مانارا مثل غاريبالدى له فرقة لا تجـــد مكانا للحرب ، وقد أمدهم فيكتور عمانويل بأسلحة جيدة من أسلحة الجيش البدمونتى ولكن لم ينط بهم عملا •

ولذلك أبحر مانارا وفرقته البالغ عدد رجالها ستمائة الى روما ، ولما اقتربوا من الميناء على مسافة أربعين ميلا من المدينة الخالدة رأوا القائد الفرنسى أودينو وهو يشرف على نزول جنوده الى البر ليتجهوا الى المكان نفسه الذى كانوا يقصدونه ، وتحدى أودينو مانارا الذى رأى أنه ليس من الصواب أن يخاطر بفرقته فى الالتحام بجيش يفوق فرقته الى حد كبير من ناحية عدد جنوده ، وبخاصة لأن غرضه كان الانضمام الى جيش غاريبالدى فى روما ، ولذلك تفاهم القائدان ، ووافق أودينو على ألا يتدخل فى نزول فرقته مانارا الى البر اذا وعد بألا يحارب فى أول اشتباك يقع فى روما ، وقد وفى مانارا بوعده • ولكن بعد ذلك خاض رجاله غمار الحرب وأظهروا بطولة خالصة ، ولا تزال فرقة الرماة موضع فخر ايطاليـــا ، وهى فرقة من المشاة بقبعاتهم المزدانة بالريش ومشيتهم العسكرية وحربهم مخبين حينما يضاعفون خطواتهم •

وبلغ عدد جنود الفرق التى كان يقودها غاريبالدى سبعة آلاف، وكان عدد أفراد الجيش الفرنسى عشرة آلاف جاءوا الى أسوار روما فى صباح يوم ٣٠ من ابريل حسنى الاعداد ومزودين بمدافع ميـــدان ولكن لم يكن معهم مدافع حصار ثقيلة ، لأنهم لم يتنازلوا الى التفكير فى أن روما قد تدافع عن نفسها •



كان أتباعه يحاربون بالسكاكين والخناجر والحراب

وأضـــاع أودينو وقتا وفقد رجالا مجربا الهجوم على الأبواب الثلاثة (بما فيها الباب غير الموجود) فى شمال سان بنكراتزيو ، وكان غاريبالدى قد وزع قواته بحذق توزيعا حسنا على طول الأسوار المسيطرة على هذه الأبواب ، والايطاليون يحسنون تنسيق الحدائق والبساتين ، ويجيدون بوجه خاص تعهد الكروم وعمل الحدائق المعلقة، وكانت الأسوار مغطاة بالكروم والحدائق المعلقة ، وكان الايطاليون يقتلون الفرنســيين بالنيران التى كانت تنصب عليهم من الكروم والأزهار المتسلقة التى كان يختبىء وراءها المدافعون عن المدينة ٠

وأخفق الفرنسيون فى هجومهم الأول ، ولذلك أخذوا فى التحول والمسير الى الجنوب نحو المرتفعات حيث كان ينتظرهم غاريبالدى ، وقد رأى من شرفة فيلا كورسينى العالية ارتداد الفرنسيين عن الأبواب الشمالية ، وكان الوقت حينذاك ظهرا ، وصمم القائد على أن يهاجم وأن يرسل فرقا من حدائق بامفيلى ويهاجم طليعة الجيش الفرنسى القادمة الى أسفل الزقاق ٠

وكان أول فوج من الايطاليين مكونا منجيوش الشبانالناشئين، ومعظمهم من نابتة الطلبة ، وقد أوقف هجومهم المفاجىء الفرنسيين قليلا من الزمن ، ولكن العدو استأنف الهجوم ٠ وكان الفرنسيون مدربين وعددهم خمســـة أضعاف عـــدد المتطوعين ، فارتد الشبان الايطاليون الناشئون الى الحدائق والفرنسيون فى أعقابهم ، وحان وقت هجوم فرقة غاريبالدى التى اندفعت الى سعير المعركة والتحمت الحرب ٠

وحميت المعركة ، واستحر القتال ، وثبت جنود فرقة غاريبالدى فى بعض الجهات واستبسلوا فى الدفاع عند بامفيلى ، وفى جهات أخرى نكصوا على أعقابهم ، واقتحم الفرنسيون كورسينى التى كانت

جد قريبة من أســـوار المدينـــة ٠ وفى تلك اللحظة جاءت امدادات ايطالية يقودها الجنرال جالتى ، واستنفر غاريبالدى رجاله جميعهم وانطلق فى طليعتهم ليقود الهجوم ، وكان ضباط غاريبالدى « نمور مونتفيديو » منبثين فى وسط الجموع الهادرة المصطخبة بوجوههم الملتحية التى تثير الرعب ، وشعورهم الطويلة وقمصانهم الحمر ممـــا جعلهم هدفا جيدا للعدو وباعث الهام للفرقة ٠ وكان يقف خلفهم رعاع روما الثائرون الغاضبون ، وأمامهم يتقدم القائد هادئا وقورا غير مبال ألبتة بالأخطار وهو يمتطى جواده الأبيض « وبنقه » الأمريكى يتطاير فوق عاتقيه كالعلم ، وقد جرح فى جبينه ذلك اليوم ولكنه تجاهل الرصاصة وهمس للجراح حينما رآه قائلا : « احضر لترانى فى هدأة الليل فانى جريح ولكن لا تعلم أحدا بذلك » ٠ وقد احتمل آلام هذا الجرح طوال الأسابيع الحرجة التالية ٠

وخـــلال فترة العصر شقت الفرقة طريقها الى الأمام ، وكان أفرادها يحاربون بالسونكى من مسافة قريبة ، وتكبد الفرنسيون خسائر جسيمة ، وجزء من الجيش الفرنسى دفع دفعا عبر الطريق الى حديقة فيلا تسمى فالنتينى ، وهناك أحاطت به فرقة الرماحة التى يقودها ماسينا وسحقته سحقا وأسرت عددا كبـــيرا من الجنـــود الفرنسيين ٠

وفى أثناء ذلك كان رجال فرقة غاريبالدى يدفعون الفرنسيين ويضطرونهم الى التقهقر فى ناحية الزقاق الذى يفضى الى طريق الميناء الذى نزل به الجيش الفرنسى الى البر والذى كانت قد رابطت فيه فرقة للمحافظة على خط تموين الجيش ، وحوالى الســـاعة الخامسة تمت هزيمة الفرنسيين ، وأسر منهم ثلثمائة وخمسة وستون جنديا ، وقتل خمسمائة جندى ٠

وقد قاد غاريبالدى فرقته وسما بالرومانيين الى الانتصار ، وفى الليل تلألأت الأنوار فى المدينـــة وانبعثت هتافات الانتصار ورن صداها فى أرجاء المدينة ، وبعد قرون من العبودية المزرية كانت روما تحتفل لا بالانتصار وحـــده وانما بادراكها لمكانتها بوصفها قلب ايطاليا الحرة وروحها ٠



الفصل السابع

الخيانة الفرنسية وأخطاء متزيني

أراد غاريبالدى أن يؤيد انتصاره بالمبادرة الى مطاردة الفرنسيين المتقهقرين حتى يبلغ بهم شاطىء البحر ، شأن كل قائد قدير ، ويبدو أنه لم يكن هناك أحد فى روما يخالفه فى ذلك ، ولكن متزينى تصدى لمعارضته ، وهنا نرى - لا لأول مرة ولا لآخر مرة - ماذا كان يقاوم غاريبالدى حينما كانت أفكاره ، وهى أفكار الجندى المجرب ، تصطدم بحيل السياسيين وأساليبهم • ولقد كان متزينى رجلا حسن القصد خالص النية ، ولا خلاف فى أنه كان رجلا عظيما ، وكان هو الوحى الروحى لايطاليا الحرة ، ولكنه لم يكن من طراز الاداريين ، كان رجلا غير عملى وغير واقعى ، وفى بعض الأحيان كانت تعوزه الحكمة الى حد كبير •

وقد أثبت ذلك فى هذه الظروف بموقفه تجاه الفرنسيين ، فبدلا من أن يدعو الغازى المعتدى غازيا معتديا عامل الفرنسيين معاملة من يعى حقيقة أن فرنسا لم تكن متحدة فى الموافقة على سياسة امبراطورها ابن أخى نابليون الأول ، كان هناك عناصر جمهورية ديمقراطية قوية فى فرنسا ، ولو أن متزينى بالغ فى تقدير نفوذها ، وقد ظن أنها قد تكبح جماح الامبراطور وتحمله على الانسحاب من التسابق الى اعادة بيونونو الى كرسى البابوية ٠

وصمم متزينى على المخاطرة بذلك ؛ لأنه كذلك كان يعلم أن النمسا ونابولى ليس بهما مؤثرات تحررية تقاوم عدوانهما على ايطاليا، ولذلك كانت النمسا تجتاح مقاطعة رومانيا على حين كان الفرنسيون يتقدمون نحو روما، وحشد الملك بومبا جيشا قوامه عشرة آلاف جندى فى تلال البان على بعد خمسة وعشرين ميلا من جنوب روما ، وقد وضع خطة لاعادة البابا بيونونو ليكون حاكما مستبدا ؛ لأنه هو والبابا غير الجدير بمكانته لم يكن عندهما أى نوع من ميل الفرنسيين الى الديمقراطية ٠

ولذلك قامر متزينى بمعاملة الفرنسيين معاملة كريمة ، وقد جرى أهل روما فى ذلك على مافى قلوبهم من عطف هو أقرب الى طبيعة الايطاليين من الولع بالحرب ؛ فقد طببوا الجرحى الفرنسيين ، وأطلقوا سراح الأسرى الفرنسيين لينضموا الى فرقهم ٠

ونستطيع أن نرى اليوم أن هذا كان ضربا من الحماقة ، وقد كان أودينو مؤدبا فى سلوكه مع متزينى ، ولكنه لم ينسحب من الميناء الواقع فى غربى روما ؛ فقد ظل هناك متظاهرا بأنه ينتظر شروط الهدنة،ولكنه فى الواقع كان يتلقى الامدادات ليقوم بهجوم آخر ــ كما حزر غاريبالدى وهو مغيظ محنق ــ ولسنا ندرى هل كان متزينى على

حق حينما قال لغاريبالدى انه اذا طرد الفرنسيين طردا كاملا فانهم سيبعثون بحملة أكثر عددا لغزو روما مرة ثانية ·

والحقيقة أن متزينى كان من بادىء الأمر يعتقد أن جمهورية روما الصغيرة لا تستطيع أن تثبت لحملات الدول الثلاث الكاثوليكية الساحقة ، ولكن اذا كان لابد من سقوطها فليكن ذلك فى فخار ومجد وبطريقة توحى الى الايطاليين العزة والكرامة والتصميم القوى على كسب بلادهم لأنفسهم ·

وقد كان هذا شيئا حسنا للغاية ونبيلا ، ولكن الجندى لا يفكر بهذه الطريقة ، فهو يحارب لينتصر ، وهو يطيع أمر رئيس الدولة ، ولذلك عمل غاريبالدى بما أمر به ، ولما منع من مطاردة الفرنسيين اقترح أن يقود فرقته وبعض الفرق الأخرى ليسحق الملك بومبا ويترك الجيوش الرومانية متأهبة لمواجهة الفرنسيين اذا نكثوا العهد ونقضوا شروط الهدنة ، ووافق متزينى على ذلك ·

وبادر غاريبالدى فى الحال ومعه ألفان وخمسمائة من الجنود الى مهاجمة جيش يبلغ عدد رجاله أربعة أضعاف جنده ، وكانت هذه الحروب ملائمة له ، فقد كانت هناك فرصة لحرب على طريقة حرب العصابات التى حذقها غاريبالدى ، والتظاهر بالهجوم ، وخداع العدو، والهجمات الخفيفة على الجناحين · وكان كل شىء متوقفا على السرعة والمبادأة والجرأة ، وكان ضمن فرقة غاريبالدى جماعات متناثرة من الجنود الذين حاربوا عند أسوار روما ، ولأول مرة اشتركت فرقة الرماة التى يقودها مانارا ·

وماكان أروعه من منظر ·· رجال غاريبالدى المجاهدون الأشداء والى جانبهم فرقة السادة الغطاريف من ميلانو وبافيا · وقبل بدء القتال كتب مانارا فى رسالته الى بلده : « انى ذاهب مع غاريبالدى ·

انه شيطان ، ومثل النمر،ورجاله جيش من قطاع الطرق وسأساعدهم في هجومهم الجنونى بفرقتى المنظمة المكونة من سادة أباة للضيم لائذين بالصمت » ٠

وربما كان هذا تقريرا من مانارا يخالف حكمه الأصح وتقديره الأكثر اتزانا وبعد ذلك بشهر أصبح رئيس أركان حرب غاريبالدى ، وتعلم أن يحبه شأن كل من عرف غاريبالدى وحارب معه ٠

وقد كتب كاتب شاب كان بين فرقة الرماة التى يقودها مانارا تقريرا عجيبا عن ذوى القمصان الحمر وفرقتهم ، وقد أدهشه أن يرى غاريبالدى وضباطه يعيشون مثل سائر النـاس فيعنون بخيولهم وينامون على الغبراء ملتفين فى « بنقهم » ، وقد حملوا معهم عادات العالم الجديد ، فكانوا اذا لم يستطيعوا الحصول على زاد من القرويين يكفيهم يحمل ثلاثة أو أربعة ضباط من مونتفيديو أناشيطهم وينطلقون على متون خيلهم بغير سرج ويسوقون أمامهم الماشية والغنم من المزارع التابعة للكرادلة الأثرياء ، ولم يكن غاريبالدى يرى بأسا فى الاستيلاء على أملاك الأعداء ، وكان يعود هؤلاء الضباط من رعاة البقر الى المعسكر وهم يسوقون أمامهم الغنائم ومعهم أسراب من الدواجن وقد شويت فى نيران المعسكر الهائلة ، فى حين كانت الخيل ترعى حرة على مسافة من المعسكر ، وحينما يحين وقت اسراج الخيل ترمى الأناشيط مرة ثانية ، ولم ير الايطاليون شيئا مثل هذا من قبل ٠

ولم يضع القائد وقتا فى هجومه الأول على بومبا ، وقد كان جيش نابولى معسكرا فى السهل الممتد أمام مدينة بالسترينا الواقعة على تل ، وقد فاجأه غاريبالدى ، بجماعات صغيرة من الطلائع السريعة وبعد ذلك قام بهجمتين سريعتين على الجناحين ، وكان يقود الجناح الأيسر مانارا ، ويقود الجناح الأيمن غاريبالدى ، وقد وضع ضباط

جيش نابولى الأغبياء وجنودهم الجبناء فى شبكة من النيران ، ولم يمض ثلاث ساعات حتى تعلقوا بأذيال الفرار مشاة وفرسانا ملقين أسلحتهم وهم يهمون بالفرار .

وهذا اللقاء الأول مع جنود نابولى البائسين البدائيين المخرفين كان له تأثير عميق فى نفس غاريبالدى ، فجهلهم وجبنهم لم يكونا نتيجة خطأ وقعوا فيه ، وانما كان مردهما الى عار حكم البوربون الذين تركوهم مدة قرون فى حالة تكاد تشبه الحيوانات ، ولم يكن لهم قبل بملاقاة رجال فرقة غاريبالدى الأشداء المعتمدين على أنفسهم واللمبارديين المتعلمين الحسنى التدريب .

ورأى غاريبالدى فى بالسترينا للمـــرة الثانيـــة شجاعة نينو بيكسيو الضابط الجنوبى الحاد الأخلاق الذى يحارب بغير مبالاة بالأخطار ، وقد ظل فى صحبة غاريبالدى الى النهاية ، وهنا ارتدى القسيس الثائر أوجو باسى قميصا أحمر وركب فى هدوء مستهدفا لنيران الوغى ، ليحرض رجال الملك بومبا على ألا يحاربوا ضد بلادهم. ورأى غاريبالدى بعد ذلك أن يعد مجموعة من القمصان الحمر ليزود بها كل فرد من أفراد الفرقة ، وليستطيع أن يشترى منها كل وطنى يريد أن ينضم الى الفرقة الغاريبالدية .

وبعد مطاردة جيش الملك بومبا ومدافعته الى داخل حدوده استلزمت الأحوال السياسية استدعاء غاريبالدى قبل أن يتم عمله ، فان المفاوضات مع الفرنسيين لم تكن سائرة كما أمل متزينى ، وساء ظنه بالفرنسيين وأرســل يستدعى غاريبالدى على عجــل ، وظل غاريبالدى طوال الليل يشق طريقه عائدا الى روما حاملا بعض الجرحى الذين احتملوا من الآلام مالا طاقة لأحد باحتماله ، ولم يكد يصل الى روما حتى كان متزينى قد غير رأيه فقد غرر نابليون الثـــالث

بمتزينى ، وقدم له وعودا زائفة ، واستقر رأى متزينى على أن من الخير اجلاء جيش نابولى عن حدود الجمهورية ٠

وأسندت القيادة الى الجنرال روسيللى ليقوم بهذا الهجوم وتحت امرته قوة كبيرة من الجنود المحترفين ، وعهد الى غاريبالدى بقسم من الجيش أقل شأنا ، وكان من الطبيعى أن يتملك الغضب غاريبالدى وتستولى عليه الغيرة ولكن لم تبدر منه كلمة واحدة تدل على شعوره بالغضب أو الغيرة ، واكتفى بقوله انه يقبل ذلك عن طيبة خاطر اذ انه يتيح له الفرصة ليجرد سيفه لمحاربة أعداء بلاده ، ولكنه أظهر عجز روسيللى أمام مدينة فيلترى التى هزم عندها جيش الملك بومبا ، فان حركات غاريبالدى العسكرية السريعة جعلت جيش نابولى يولى هاربا فى الوقت الذى تلكأ فيه القسم الأكبر من الجيش الذى يقوده روسيللى ووقع فى أخطاء كثيرة ٠

وكان غاريبـــالدى مقتنعا الاقتناع كله بضرورة مطاردة جيش بومبا مطاردة قطيع من الأغنام حتى مدينة نابولى ، لاعتقاده أن أهل نابولى يمكن حفزهم الى الثورة على الملك بومبا ، ولكن لم تعط له الفرصة لاثبات ذلك ، لأن النمسا استولت على بولونيا فى ذلك الوقت وكانت تهدد الجمهورية من الشمال ٠

وأطاع القائد الأوامر مرة ثانية ، وترك قرية فى داخل حدود مملكة نابولى ظنه أهلها فى بادىء الأمر تابعا للشيطان ، ثم أدركوا بعد ذلك أنه ملاك أرسل لانقاذهم ، وعاد أدراجه الى روما وهو ينتظر أن يرسل لمحاربة النمساويين ٠

وبدلا من ذلك وجد حينما دخل روما فى اليوم الحادى والثلاثين من مايو أن حكومة متزينى قد خدعت بخيانة حقيرة مزرية ، فبينما كان ديليسبس المبعوث الفرنسى يوقع معاهدة لعقد صلح مع الجمهورية

الرومانية كان أودينو قد استكمل امداداته عمـــلا بأوامر نابليون الثالث ، وأصبح تحت امرته عشرون ألفا من الجنود وست مدفعيات ومدافع حصار ومهندسون وعسكر على بعد ميلين خارج المدينة ، وكان مقررا أن يتلقى عشرة آلاف جندى آخرين وأسلحة للحصار خـــلال الشهر نفسه ، أى ان أودينو خرق المعاهدة ونقض الهدنة فى يوم اقرارها .

وحتى بازاء هذه العقبات الباعثة على اليأس لم تستطع حكومة متزينى أن تسمو على المنافسات الحقيرة وتعهد بقيادة الجيش جميعه الى غاريبالدى ، فقد عينت روسيلى قائدا عاما للجيش وهـــو الذى قصر فى الاستعداد حينما كانت العين العارية تستطيع مراقبة حركات أودينو، وأناطت بغاريبالدى الدفاع عن تل جانيكالم وهو مفتاح روما، ولكنه لم يعط حتى المعلومات الوثيقة عن الموقف هنالك .

وكان روسيلى وهو المستخف بالتبعة الملقاة على كاهله الى درجة لا يمكن تصديقها قد تحدث مع أودينو وقبل تأكيده بأنه لن يستأنف الهجوم حتى اليـــوم الرابع من يونيو ، وبطبيعة الحال نقض الخونة الفرنسيون وعدهم ؛ ففى الساعة الثالثة من صباح اليوم الثالث من شهر يونيو دخل فجأة مهرولا الى حجرة غاريبالدى المتواضعة فى روما الملازم الشاب دافريو وهو يصيح قائلا ان الفرنسيين قد بدءوا الهجوم واستولوا على فيلا بامفيلى وفيلا كورسينى ، وكان القـائد ملازما الفراش متألما من نفور جرحه القديم .

فوثب القائد من فراشه ليقود الاندفاع الى الأسوار .



الفصل الثامن

حصار روما

قبيل الساعة الخامسة فى صباح ذلك اليوم كان غاريبالدى فى طريقه لمهاجمة الفرنسيين فى فيلا كورسينى ، وقد خرج ممتطيا جواده من باب سان بانكراتزيو على رأس فرقته ومعه ماسينا وبيكسيو ودافيريو وميديتشى وغيرهم من الضباط الشبان ملتفين حوله ، وكانت روما خلفهم فى هياط ومياط ، ومئات من كنائسها تقرع نواقيس الخطر والجنود والمواطنون يتسابقون الى حمل السلاح ، وفى طريق سان بانكراتزيو الضيق كان عدد جم من الجنود مخفيين ، وقبل أن

ينتهى اليوم كان هناك تياران زاخران : تيار الجنود المحاربة المسرعة الى الأسوار ، وتيار آخر عكسى بطىء من الجرحى العائدين ٠

وبتتبعنا لمعـــركة ٣٠ من ابريل يمكن أن نتبين مزايا موقف الفرنسيين ، فقد كانوا الآن قد سيطروا على المرتفعات خارج سور المدينة الذى لم يكن له فائدة تذكر قبل ضرب المدينة بالمدافع ، وفى داخل المدينة كان تل جانيكالم هــو الحاجز الوحيد الذى يعترض تدفقهم الى نهر التيبر ومنه الى قلب المدينة المنبسطة خلفه ٠

وكان الاستيلاء على فيلا كورسينى التى أصبحت فى قبضـة الفرنسيين أمرا حيويا ، وليس ذلك من أجل ارتفاعها فحسب ، وانما من أجل موقعها المستشرف ، ولقد كانت قائمة خلف سور منخفض صفت فوقه أوعية ضخام تحوى أشجار برتقال ، وكانت هذه الأوعية مجان واقية للرماة ، وتجاه المنزل عطفتان منحدرتان نحو المدينة على جانبيهما سياج من نباتات تلتقيان عند زاوية مثلث يوضحها باب يفضى الى الطريق ، وكان هذا الباب هو المدخل الوحيد الى حدائق كورسينى بامفيلى ، وكان عنق زجاجة مميتا على الايطاليين المهاجمين أن يمروا منـــه ، والفرنسيون يحميهم سياج النباتات على طرفى العطفتين وأشجار البرتقال على السور ، وكان يســـمى فى التاريخ « زاوية الموت » ، وقد تضمن هذا الاسم الكثير من الصدق المحزن ٠

وأخذ غاريبالدى مكانه فى مواجهة الطريق المفتوح أمام الباب وهو ممتط جواده الأبيض غير مبال بالخطر ، وكان يأمر شرذام من فرقته بالتقدم الى زاوية الموت شرذمة بعد أخرى لمهاجمة الباب والمنحدر الموصل الى المنزل تحت نيران الفرنسيين المهلكة التى لا تنقطع ، واذا ظل عدد كاف منهم أحياء فان عليهم أن يحملوا حملة عنيفة على الدرج المزدوج الموصل الى قاعة الاستقبال لمهاجمة الفرنسيين بالسونكى واجلائهم عن الفيلا ٠

وفى كل مرة يحدث هذا كان الفرنسيون يرتدون الى حدائق بامفيلى الواسعة الواقعة خلفهم ، وكانوا يستطيعون معاودة الهجوم ويستردون المنزل تحميهم مدفعيتهم من الأخطار التى فتكت بالايطاليين ، وبهذه الطريقة تغير الاستيلاء على فيلا كورسينى مرات عدة قبل الساعة الثامنة من الصباح ، ولكن رجال غاريبالدى لم يستطيعوا تثبيت أقدامهم هناك لأنهم لم يتلقوا امدادات مستمرة من المؤخرة وفى كل هجمة جديدة كان يسقط رجال من جنود الفرقة الأنجاد ومنهم معظم لابسى القمصان الحمر القدامى الذين كانوا يقودون الهجوم ، وقتل دافيريو وجرح بيكسيو وماسينا ، وكان القائد وحده هو الذى نجا بأعجوبة بالرغم من أن بنقه كان ممتلئا بثقوب من وقع الرصاص ٠

وفى أثناء ذلك كان مانارا وفرقته من الرماة لا يزالون فى روما منتظرين فى ساحة روما (الغورام) الأمر بالتقدم ، وكان غاريبالدى قد أصدر هذا الأمر ، ولكن روسيللى نقض هذا الأمر ولم تفسر قط أعماله تفسيرا واضحا ، وأخيرا صاح لوشيانو مانارا برجاله قائلا : « الى الأمام » ٠ واندفع الرجال الأباة القادمون من الشمال ، وكانت الساعة قد بلغت الثامنة حينما وصلت الفرقة الى زاوية الموت ، وكان الفرنسيون قد استردوها فى التو واللحظة ، وقاد مانارا نفسه الهجوم من الباب الى التل الى ستار النار الذى كان يضعه الفرنسيون ٠

وكان هذا الستار الأشد فتكا ، وكان الفرنسيون قد تجمعوا وكونوا سدا منيعا ، وجاء الرماة كالمد الزاخر وكانوا يتساقطون وهم يتقدمون وزملاؤهم يثبون فوقهم ولم يتراجع واحد منهم أو يتخاذل ، وحينما كانوا لا يستطيعون التقدم كانوا يلبثون فى مكانهم ويجثون على ركبهم ويطلقون النيران ، والى جانبهم يقف ضباطهم فى ثبات

واصرار ، وراقب مانارا الموقعة مدة عشر دقائق كانت فظيعة قاسية ، ولم تستطع الفرقة موالاة التقدم ، كانت النيران الفرنسية تجعل ذلك من المستحيلات ، فأمر مانارا رماحته بالارتداد ٠

وما كان أقسى ذلك على نفوس الرماحة الأمجاد ، لقد احتملوا خسائر جسيمة والفرنسيون يحصدونهم حصــــدا وهم يرتدون من زاوية الموت ، ولكن هجومهم وقف الكسب الدائم للفرنسيين ومكن فرقة غاريبالدى خلفهم من الاستيلاء على فيلا قاسشيللو وغيرها من المغانى الواقعة فى سفح تل كورسينى ٠

وانتهى اليوم بهجوم جنونى آخر جرىء على فيلا كورسينى ، وبعض حركات غاريبالدى الحربية لم تكن حكيمة ، ولم يكن يجيد هذا النوع من الهجوم اجادته للحركات السريعة فى حرب العصابات ، وقد ضحى بحيوات كثيرة فى هجمات متوالية بشراذم قليلة دون أن يستغل استغلالا كافيا ماعنده من المدفعية القائمة على أبراج السور ٠

ولكن فى أواخر اليــوم أمر بضرب منزل كورسينى بالمدافع الأمامية ضربا شديدا حتى تطايرت منه كتل ضخمة،واضطرب الدفاع الفرنسى ، وقام رجال غاريبالدى بهجوم يقودهم أربعون من فرقة ماسينا الرماحة الذين ترجلوا عن جيادهم وأخذوا يطلقون الرصاص، وكان يركب فى طليعتهم قائدهم الكولونيل الشجاع وقد جاء من مستشفى الميدان وذراعه الجريح محفوفة بحمالة ، وهز سيفه مستحثا جواده على الاخبار الى سلالم فيلا كورسينى ، وهناك قتل وظل ملقى على الأرض التى يتنازع عليها الفريقان مدة أســـابيع وللرصاص والقنابل أزيز فوق جثته ٠

ولما أقبل النبيل كان المهاجرون والمدافعون قد استقر كل منهم فى المواقع التى استولوا عليها ، وظلوا على تلك الحال المدة الباقية من

شهر يونيو الذى حفل بالحوادث الفاجعة ، وقليل من حوادث التاريخ مايشبه مأساة بطولة الدفاع عن روما وهى محاصرة ، ولقد كان الدفاع عنها مقضيا عليه منذ اللحظة الأولى ، ولكن هذه اللحظة امتدت الى سبعة وعشرين يوما من المقاومة الحامية والدفاع المجيد ٠

وكانت كلمة الايطاليين التى اتخذوها شعارا هى : « لا تسليم » ومات مئات من زهرة الشبان وهم يرددون هذه الكلمة ، وكان رد الجرحى وهم فى طريقهم الىالمستشفيات المزدحمة للذين كانوا يحيونهم من أهل روما « لتحيى ايطاليـــا ٠ لتحيى الجمهـــورية ٠ » وضرب الفرنسيون المدينة بالمدافع الذى كان يزداد كل يوم شدة لم يقض على روحهم المعنوية ، ولكن المدافع الايطالية التى كانت فوق أبراج السور، ولم تكن ضخمة أو كافية لتحويل التيار برغم ما أظهره رجال المدفعية الايطاليون من البراعة ، وغاية ما استطاعوا هو تجميد الموقف مدة أسابيع ٠

واتخذ غاريبالدى مركزا لقيادته منزلا فى داخل باب سان بانكراتزيو ومن أعالى هذا البيت على تل جانيكالم كان يستطيع توجيه الدفاع القائم على الأســـوار ذوات الأبراج وعلى موقعين أماميين فى خارجهما ، وهناك فى المنزل المسمى فاشيللو كانت شجاعة الحرس النادرة المستغربة تحت قيادة جياكومو مديتشى الذى كاد يكون آخر الباقين على قيد الحياة من ذوى القمصان الحمر القادمين من مونتفيديو هى المحور الذى يدور حوله القتال جميعه ، واذا قدر للفرنسيين أن يدخلوا روما بهجوم أمامى فقد كان عليهم أن يستولوا على الفاشيللو القائم خارج الباب ينفث النـيران وكتـائب الرماة التى توزع الموت والذين يحاربون بالسلاح المصنوع من الفولاذ من مسافات دانية ، وقبل أن ينتهى الحصار كان الفرنسيون قد ضربوا هذا المنزل بالقنابل حتى صار كومة من الأنقاض ولكنه لم يستسلم لهم ٠

وقد قضى الجيش الفرنسى البالغ عدد أفراده ثلاثين ألفا من الجنود الأشداء المزودين بعدد من المدافع والأسلحة لا يعد ثمانية عشر يوما ليتقدم من فيلا كورسينى الى حائط أورليان ـ وهى مسافة يستطيع الانسان أن يقطعها مشيا فى أقل من نصف الساعة ـ وحينما وصلوا الى الحائط فى يوم ٢٢ من يونيو اضطروا الى القيام بهجمات جانبية لأنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على الفاشيللو ، ولم ينقطعوا عن ضرب الحصون الداخلية والمدينة نفسها بالمدافع ، وكانت النساء العاملات القويات والأطفال يلتقطون القنابل الحية ويقذفونها فى نهر التيبر وهم يسخرون ، ونسف مكان قيادة غاريبالدى ، ولما تهاوت الحيطان انتقل الى منزل آخر فى الجانب المواجه من الطريق .

وكان الأسبوع الأخير من الحصار مبارزة لا تنتهى بين المدفعية وكان الفرنسيون متفوقين على الايطاليين فى عدد المدافع ووزنها،ولكن الايطاليين مع ذلك لم يتوقفوا عن مواصلة اطلاق المدافع ، وهدم الفرنسيون الكثير من التحصينات الداخلية ولكنهم لم يستطيعوا تثبيت أقدام جنودهم المشاة ضد الحروب الدانية الهوجاء والاشتباكات التى كان يقوم بها الايطاليون .

وفى هذا الخضم من الأحداث وفى اليوم السادس بعد العشرين من شهر يونيو ظهرت أنيتا غاريبالدى فجأة فى مركز قيادة زوجها الملأى بالثقوب ، ولم يكن يدرى أنها فى طريقها اليه من نيس ، وكانت هذه السيدة لا تحفل ألبتة بالخطر مادامت فى طريقها لتكون الى جانب زوجها فى مواجهته ، وقد امتلأت نفسه سرورا برؤيتها ، وربما تكون قد زادته اصرارا على الدفاع .

وفى اليوم التالى حينما كانت آخر حصون روما تتداعى اقترح غاريبالدى على متزينى انتقال الحكومة والجيش الى الناحية الشرقية

ومتابعة الحرب فى الجبال بدلا من انتظار دخول الفرنسيين المدينة ، ورفض هذا الاقتراح كذلك ، وكان متزينى ومستشاروه قد صمموا تصميما أكيدا شديدا على جعل روما تواصل الدفاع حتى النهاية المرة ، ولم ير غاريبالدى وراء ذلك ســـوى التسليم فغضب غضبا شديدا وحدثت مشاجرة عنيفة بينه وبين متزينى وقدم استقالته من القيادة ٠

واستدعى فرقته وسحبها من الجانيكالم وكان ذلك عمـــلا من أعمال اليأس جانبته الحكمة ، ولكن غاريبالدى كان انسانا مثل سائر الناس ولو أن الناس كانوا يقدسونه كما يعبدون الله ، وقد ترك الدفاع فى ذعر خلفه،وتملك الرعب روسيللى الذى كان لا فائدة ترجى من قيادته لجيش قد فقد روحه المعنوية ، وكان مانارا هو الذى ذهب الى غاريبالدى وتحدث معه وأقنعه بالعودة ، وكان الفرنسيون عند أسوار المدينة وبدون غاريبالدى ينتهى الدفاع ـ الذى استغرق شهرا وحفل بأعمال البطولة ـ نهاية مخزية ٠

وعند تبلج الفجر أسرع الناس الىالشوارع لتحية ذوى القمصان الحمر وهم يعودون الى مواقفهم الأخيرة ، وكان على رأسهم غاريبالدى المغيظ المحنق ، وربما تسقط روما ولكنه لن يستسلم ٠



الفصل التاسع

نحن الذين على شفا الموت نحييك

كانت الليلة ليلة اليوم التاسع بعد العشرين من شهر يونيو ، وكانت المدفعية الفرنسية قد دكت آخر مواقع الدفاع دكا وأحالتها أنقاضا ، وخندقت مشاة أودينو تحت الجانب الخارجى لسور أورليان ، وقد حطم السور بضربه المتواصل بالمدافع وكان هذا التحطيم من الشدة بحيث أحدث ثغرات استطاع أن يرسل منها فرقا من جناحى الجيش الى شمال الباب وجنوبه .

وكان الفرنسيون محاربين بارعين شجعانا مطيعين ، ولكن آخر الرماة وبقايا الرماحة وذوى القمصان الحمر كانوا أكثر من ند لهم ، وكانت المسألة دائما مسألة العدد ٠

وصدرت الأوامر الى فرقة فرنسية بالتقدم الى فيلا سبادا ، وهى مقر قيادة غاريبالدى الثانى المحطم فى داخل السور ، وهناك كان مانارا ورجاله قد انتظروا بشجاعة بلغت حد الوحشية والضراوة حاملين بنادقهم فى الظلام الحالك المخيم حتى يستطيعوا أن يروا الملابس التى تميز العدو من الصديق ، وكان غاريبالدى نفسه فى الخارج بالطريق حيث انطلق عند هجوم الفرنسيين وهو يصيح : « تقدموا ٠٠ أقبلوا ٠٠ هذا هو الصراع الأخير » ٠

ورأى شاهدو العيان غاريبالدى يثب الى الأمام شاهرا سيفه وهو يصيح بنشيد شعبى ، وكان فى غمرة القتال ويضرب حوله بسيفه الثقيل الذى كان يرى فى اليوم التالى وقد غطاه النجيع ، وكان لابسو القمصان الحمر يغشون المعركة خلفه ، وفى آخر ساعات الظلام قبيل تبلج الفجر كانت الساحات أمام باب المدينة قد غصت بجماعة من الرجال يقتل بعضهم بعضا بزج البندقية وبالسنكى وبالرمح والسكين ، وحارب الرماحة الذين جاءوا فى رفقة ماسينا راجلين حتى قتلوا جميعهم على وجه التقريب ، وفى اليوم التالى رأى القواد الفرنسيون باعجاب واشفاق الأرض مغطاة بالأعلام الصغيرة الملصقة بالرماح وهى لا تزال فى أيدى القتلى ٠

وهكذا كان سقوط روما ، ولم تستمر المعركة بعد ذلك سوى يوم وليلة ، وبعد أن اضطر الفرنسيون الى أن يسلكوا طريقا آخر غير طريق فيلا فاسيشللو التى لم يستطيعوا زحزحة حماتها استدعى غاريبالدى مديتشى البطل المقدام وحراس الفيلا الذين دخلوا روما دون

أن يلحقهم عار الهزيمة ، وفى تلك الليلة جدد الفرنسيون هجومهم على فيلا سبادا التى لم تسلم لهم · وهناك فى ساعات الحصار الأخير أصيب لوشيانو مانارا المحبوب من جميع عارفيه وأضرابه بالجرح الذى مات به ، وحاربت فرقة الرماة اللمباردية بعد مصرع قائدها حتى صار أفرادها فى الدار المتهدمة غير المنهزمة مابين قتيل وجريح ·

وقاد غاريبالدى الهجمات الأخـــيرة فى تلك الليلة مثل الليلة السابقة ونازل جموعا يفوق عددها عدد رجاله ، وكان الفرنسيون يتدفقون أفواجا متتابعة ، واستمرت معركة الموت حتى ظهر اليـوم التالى ، وبمعجزة سلم غاريبالدى من الخطر ، ونجا من العطب ، ولما قبل الهدنة ليجمع جثث الموتى من رجاله ويستنقذ الجرحى عرف أهل روما جميعهم أن الحصار قد انتهى ·

وتلقى غاريبالدى أمرا بالحضور الى الجمعية حيث كان مجلس النواب الجمهورى يبحث شروط التسليم ، وبرغم توقف اطلاق النار تلكأ غاريبالدى عن ترك موقفه وحمل نفسه حملا على الوثوب على جواده وبينما هو يهم بالذهاب اذا به يصاب بصدمة تزيد حزنه على فقد رجاله اشتعالا ، فصديقه الأمين الوفى الزنجى آجيار الذى جاء معه من أمريكا الجنوبية أصابته قنبلة أودت بحياته ·

وانطلق غاريبالدى على جواده الى هيكل الكابيتول حزين النفس موجع القلب ، وسار الهوينا الى الجمعية كسيرا حينما غادر المعركة ، وكان قميصه الأحمر قذرا قد بللته الدماء والعرق يسيل على وجهه وسيفه ملتو وملتصق فى منتصف الغمد ، ووقف الأعضـــاء حين دخوله وهو يتقدم الى منصة الخطابة وحيوه هاتفين ·

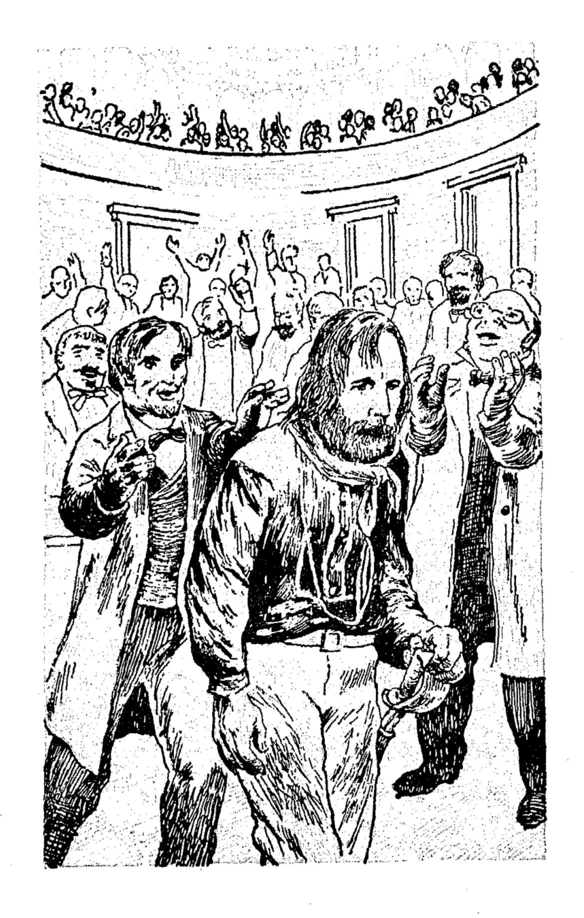
وكانوا يبحثون ثلاث خطط مختلفة لمصـير روما ، وسـألوا غاريبالدى النصيحة ، أما الخطة الأولى وهى التسليم فان غاريبالدى

رفض حتى مناقشتها ، وكانت الخطة الثانيـــة هى متابعة الحرب فى الشوارع والقيام بتنفيذها يعرض كل بناء قائم فى المدينة الخالدة للهدم والتحطيم ، وقد رفض غاريبالدى هذه الخطة مثل كل قائد عرفه التاريخ ٠

وكانت الخطة الثالثة هى الاقتراح الذى سبق له التقدم به قبل ذلك بثلاثة أيام ، وهو الاقتراح الخاص بانتقال الحكومة الى الجبال والاستمرار فى الحرب ، ولو أن هذه الخطة اتبعت حينما عرضها فى بادىء الأمر وأدلى باقتراحها لكان من الممكن أن يكون معه مجموعة من خيرة الفرق قد أصبحت الآن ملقاة على الثرى بعد أن استمر القتال ، ولقد كان اقتراح هذه الخطة الآن متأخرا ، ولكن لم يكن لغاريبالدى مناص من هذا الاختيار ، ووافقت الجمعية على هذه الخطة موافقة غير رسمية ، ولكن لما كانت روما موشكة على العودة الى حكم البابا بيونونو فانه لم يكن هناك أهمية لما تقرره الجمعية ٠

ورفض متزينى أن يقر البيان الذى ذكروا فيه أنهم توقفوا عن الدفاع الذى أصبح غير ميسور ، وقدم استقالته وسرعان ما اتخذ طريقه الى لندن فى أعقاب ذلك حيث عاش بقية حياته منفيا ، وكان أصلب مكسرا من أن يستطيع الملاءمة بين نفسه وبين أى تعديل لصورة مثله الأعلى ، وكان مصدر وحى للأفكار الكبيرة ولكنه لم يعد بعد ذلك قط الى الاشتراك فى الأعمال العظيمة ٠

دخل الفرنسيون المنتصرون روما دخولا رسميا فى اليوم الثالث من شهر يوليو ، وبطبيعة الحال ذهب غاريبالدى قبل أن يشاهد هذا اليوم المحزن ، ولقد صمم على أمره تصميما طائشا يائسا ، فأينما كان يذهب هو ورجاله كانت جيوش النمسا ونابولى والبابوية التى استردت سيطرتها واقفة له بالمرصاد ، وبدون حكومة ولا أمة ولا دولة خلفهم



وقف أعضاء الجمعية وهو داخل وحيوه هاتفين .

كان لا يمكن أن يعد أنهم أعلنوا الحرب وانما هم جماعة من المشردين الخارجين على القانون يحاربون حرب عصابات غير نظاميـــة ، ولكن الرجال الذين ربطوا مصيرهم بمصير غاريبالدى كانوا لا يستسلمون لأجانب فوق أرض ايطاليا ٠

وكان غاريبالدى قد صرح فى الجمعيـــة بأنه لا يقبل ســـوى المتطوعين ، وكل رجل تفرض عليه هذه الحياة المعرضة للأخطار وتجشم المشاق عليه أن يقطع فى هـــذا الأمر الرهيب برأيه ويعتزم عزمه بنفسه ، وكانت الأمهات والزوجات والحبيبات يتوسلن الى رجالهن ليحلن بينهم وبين الذهاب ، والذين عقدوا العزم على الذهاب مع غاريبالدى كانت تحدوهم على ذلك بواعث مختلفة ٠

بعضـــهم كان يريد أن يفر من الشرطة والسجون البابوية ٠ والمحاربون اللمبارديون كانوا لا يريدون العودة الى ميلانو ومعاناة ظلم النمساويين وعسفهم ، وفريق آخر من الرجال جاءوا من مقاطعات نائية وكانوا يريدون أن يكونوا فى حماية الرفقة أثنـــاء عودتهم الى ديارهم ، وبعضهم كانوا يقاسمون غاريبالدى مشاعره ، وفئة أخرى قليلة من المقربين وخلصانه الذين كانوا لا يريدون شيئا من الدنيا سوى أن يتبعوه ويقاسموه مصيره ٠

وتطوع أربعة آلاف رجل ، وتلاقوا فى اليوم الثانى من يوليو فى ميدان القديس بطرس الكبير ، وجاء معهم أقاربهم وأكثر من عشرة آلاف رجل من الرومانيين لتوديعهم وتوديع قائدهم ، ومر وقت طويل قبل أن يستطيع غاريبالدى وهو على جواده الأبيض أن يشق طريقه فقد اجتمع حوله الدهماء وهم يحيونه ويهتفون باسمه ويبكون حتى بلغوا وسط الميدان ، وهنالك بعد أن استمال هذا الجمع الغفير الى التزام الصمت انبعث صوته الرخيم الخفيض مجلجلا بهذه الكلمات :

« ان الحظ الذى يخوننا اليوم سيبتسم لنا غدا ، وانى خارج من روما وليأت معى هؤلاء الذين يريدون أن يواصلوا الحرب ومجاهدة العدو الأجنبى ، وانى لا أعد بدفع شىء ولا بسكن ومأوى ولا زاد ومؤونة ، وانما أعد بالجوع والعطش والسير القهرى والمعارك والموت، فليتبعنى من يحب ايطاليا لا بلسانه فحسب وانما بقلبه » ٠

وسار غاريبالدى على جواده متمهلا بين الجموع الحاشدة المجهشة بالبكاء بعد أن أخبر المتطوعين بالاجتماع للمضى فى السير فى نهاية اليوم ، وفى ذلك الصباح رفض غاريبالدى بتأثر شديد سفينة قدمها له السفير الأمريكى لتحمله الى أى مكان يريد أن يذهب اليه ، ولما أقبل المساء اجتمع المتطوعون فى ميدان لاتران ، وكان بينهم البقية القليلة الباقية من جنود الحصار الشجعان وهم أفراد الرماة والرماحة من بولونيا الذين تركوا قوادهم وزملاءهم قتلى شهداء كراما ، وكان الباقون من فرقة غاريبالدى هنـــاك كذلك ، وحتى مئات قليلة من فرسان جيش البابا والثائرين خرجوا من اسطبلاتهم التى حبسهم فيها ضباطهم لينضموا الى جيش غاريبالدى فى مسيره ٠

ومن ناحية أخرى فان بعض الذين حاربوا مع غاريبالدى لم يتطوعوا فى هذه المرة ، وربما كان عندهم شىء ليعيشوا من أجله أجدى عليهم من هذا المصير المظلم الذى وعد به غاريبالدى ولكن أقرب الناس اليه وأعزهم عليه كانوا معـــه ، فقد كان هناك الأب أوجوباشى فى قميصه الأحمر ومعه صليبه ، والوطنى الرومانى برونتى ومعه ابنه البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة ، واختار مؤرخ سويسرى أن يتبع غاريبالدى بدلا من أن يعود الى داره الهادئة ، وكتب بعد ذلك قصة التقهقر والانسحاب ٠

وأخيرا كانت هناك أنيتا فى قميصها الأحمر مثل سائر أفراد الفرقة وقد قصت شعرها الطويل وتبدت وهى راكبة جوادها كاحدى نساء الأمازون ، وقد رفضت أن تترك بيبينو وتعود الى مأمنها فى نيس . وبالرغم من أنها كانت على وشك أن تضع مولود آخر فانها احتملت بدون اكتراث تلك الأيام المنهكة والليالى المسهدة وهى فوق ظهر جوادها ، وصبرت للحرارة اللافحة والسغب والتعرض للخطر وتجشم المتاعب ، وكانت لا تكف عن الابتســـامة المشرقة ومد يد المساعدة لمن هو فى حاجة اليها ، وكان الجنود يعبدونها .

ولما علوا هؤلاء الجوالون ظهور خيلهم كان ضوء النهار موليا ، وقد كانوا ذاهبين الى الخطر ومقدمين على مصير مجهول،ولكن المكروبين الذين تخلفوا كانوا سيستيقظون فى اليـــوم التالى ليعانوا سنوات أكثر تستبعدهم فيها شرطة بيونونو وجواسيسه وسجونه وخلفاؤه الأجانب .



الفصل العاشر

الانسحاب من روما

كانت فينيسيا هى قصد غاريبالدى ، فمنذ أكثر من سنة ثارت هذه المدينة الجميلة ذات القنوات على النمسا ، وكانت مازالت ثابتة للحصار الشديد القاسى ، ولم يستطع النمساويون التغلب على مقاومتها وتخضيد شوكتها ، واعادتها تحت سيطرتهم • وبينما كان نظر العالم متجها الى روما كان المدافعون عن فينيسيا قد أخذت تتراخى عزيمتهم ، والآن وقد فقدت روما وتداعت الجمهورية التوسكانية القصيرة الأجل أصبحت فينيسيا آخر مكان يجاهد فيه الأحرار الايطاليون •

واعتزم غاريبالدى أن يعبر سلسلة جبال الأبيناين الممتدة من شمال ايطاليا الى جنوبها متجها من الشاطىء الغربى الى الشاطىء الشرقى اذا تيسر له الافلات من مطارديه ، ثم يتجه بعد ذلك بجيشه شمالا لمساعدة أهل فينيسيا ، وأمل أنه وهو فى طريقه يستطيع أن يثير سكان ايطاليا الوسطى على الدول المحتلة ، وربما كان من اللازم له أن يعرف أن الناس كانوا متعبين من الحرب والسياسة ؛ فالفلاحون كانوا مرعوبين ، وكانوا يريدون أن يتركوا ليستمروا فى عملهم الصيفى ، وقليلون كانوا ميالين الى المغامرة بحياتهم بوصفهم ثائرين أو بوصفهم متهمين بجريمة ايواء الخارج على القانون أو مساعدته فى طريقه ٠

وخرج رجال جيش العصابات الصغير من روما وليس معهم سوى عدد قليل من العربات ومدفع صغير وساروا ليلا وقد تقدمتهم جماعة من الفرسان الكشافة فى صمت تام ، وكان هذا اللون من ألوان الحرب هو الذى يجيده غاريبالدى ، وتحرك بسرعة ولم يسر فى طريق مستقيم وانما كان يتحرك فى خطوط متعرجة ، ويضاعف الخطوات ، ويخادع الأعداء ويمكر بهم ، حتى راجت اشاعات فى الريف مضمونها أن جيش غاريبالدى عدده ضخم ، وكانت الجيوش الفرنسية والنمساوية والبابوية وجيوش مملكة نابولى ـ ومجموعها جميعا حوالى خمسة وستين ألفا ـ تحت قيادة ضباط قساة غلاظ ميالين الى الانتقام منتشرة كشبكة الصياد للقبض على العصابة الخارجة على القانون التى بدأت وعدد أفرادها أربعة آلاف ، ولكن عددها أخذ فى التناقص منذ الليلة الأولى من مسيرها ٠

وكان هذا التناقص فى العدد أشد ايلاما لنفس غاريبالدى من احتمال مشاق السير ، وتوالت عليه نوبات خيبة الأمل ، فها هوذا يرى رجاله يهجرونه وينفضون من حوله ، وكان هناك ماهو شر من ذلك

وأشد اثارة للألم فى نفسه وهو وجود خونة بينهم ، وهم فريق من الضباط باعوا أنفسهم للنمسا ... فلماذا أصاب أبطال روما ؟ وأين ذهبت قدرته على الايحاء لرجاله ؟ وحتى الشجعان ذوى الحفاظ الموالين له اختفوا ، منهم من فقد فى أفياف الجبال ، أو وقع فى أيدى النمساويين ليذوق ألوان العذاب ويجلد أو يقتل .

وكان هذا السير من الشاطىء الغربى الى الشاطىء الشرقى يقتضى عبور جبال الأبينايين السلسلة الفقرية لايطاليا فى أعلى أجزائها ، وقمم هذه الجبال الجرد الموحشة وأوديتها لايزال اجتيازها من أشق الأمور على الجيوش حتى اليوم ، وقد عبرها غاريبالدى وأنيتا ورجالهما فى وقدة الصيف وحمارة القيظ حيث يضاعف الجفاف الشديد العذاب ويطيل المحنة ، وفى الصيف لا يكاد المطر يسقط فى ايطاليا الوسطى ، وتجف مياه الجدول ، ويندر وجود أكثر من عين من عيون الماء أو بئر فى كل قرية بدائية ، وفى بعض الأحيان تنضب مياهها ، ولنتصور فى مثل هذه الظروف كيف كان يبدو للفلاحين المستيقظين فى الفجر هؤلاء الجماعة من الغوغاء القذرين الجفاة فى الأسمال الرثة وقد جاءوا فى الليل ، يحفهم الصمت ، وقد برح بهم الجهد ، ولوحهم الظمأ ، فهم يطلبون الماء والرجال والخيل .

وفى أول الأمر كان القرويون على طول الطريق يساعدونهم فى غير تحفظ ، ولكن مساعدة هؤلاء المطاردين المشردين أخذت تقل شيئا فشيئا ، ولم يكد ينقضى شهر يوليو حتى وصلوا الى أماكن لا يسمح لهم أهلها حتى بالوقوف التماسا للراحة ، وكان لابسو « البذلة » البيضاء من النمساويين منبثين فى كل مكان ومستعدين دائما أن يثيبوا بالمال كل من يخون غاريبالدى . وبطبيعة الحال كان هناك قوم شجعان وطنيون حذروه وجعلوه على علم بهذه المحاولات ، ولم يألوا جهدا فى مساعدته ، ولكن بعد منتصف شهر يوليو صار السير معركة

يائسة فى وجه خطر متزايد وأمل ألح عليه الضعف ، وكان لمحاربة النمساويين أقوى الأثر فى ذلك .

وفى آخر الشهر رأى غاريبالدى أن الأمل فى الوصول الى فينيسيا ضعيف ، ومتى وصل الى شاطىء البحر الادرياتيكى كان سيجد الطريق الى الشمال على شاطىء البحر المنبسط محكم الحراسة بحيث لا تكون هناك فرصة للافلات من شبكة المراقبة النمساوية ، وكان رجـــاله الذين تناقص عددهم حتى صـــاروا لا يزيدون عن ألف وخمسمائة من الصعاليك المثلومى العزم والذين بلغوا أقصى حدود الاحتمال البشرى ، وكان هناك ماهو أشد من ذلك فكانت أنيتا التى قاسمته باهتمام احتمال هذه الأخطار مريضة بالحمى ولم يكن هناك سوى عمل واحد .

فعلى مسيرة اثنى عشر ميلا من شاطىء الادرياتيكى جمهورية سان مارينو ، وهى رأس دبوس فى خريطة ايطاليا ، وقد احتفظت باستقلالها منذ العصور الوسطى ، وبوصفها منطقة محايدة كانت هى المكان الوحيد الذى يستطيع غاريبالدى أن يلتمس فيه الحماية ، ففى باكورة اليوم الأخير من شهر يوليو اقترب منها وكان ممتطيا جواده على رأس أتباعه الذين خارت عزائمهم بعد مناوشة أخيرة للهرب من النمساويين ، وتبدد شمل الغاريبالديين على وجه التقريب بعد فقدان آخر معداتهم ، وتركوا المدفع الوحيد الذى كان معهم بعد أن سحبوه طول الطريق .

وفى سان مارينو كتب غاريبالدى وهو حزين فى صباح ذلك اليوم آخر أمر أصدره وقد تضمن تسريح رجاله واعفاءهم من كل التزام وتركهم أحرارا فى العودة الى حياتهم الخاصة ، وقبلت حكومة الجمهورية الصـــغيرة مفاوضة النمساويين ليتركوا رجال غاريبالدى

يعودون الى ديارهم آمنين لقاء تسليم أسلحتهم ، ولم يف النمساويون الخونة بعهدهم أثنـــاء عودة رجال الفرقة الى بلادهم ، فقد عذبوا الكثيرين وقتلوا البعض وسجنوا فريقا منهم ٠

ولكن القائد ـ وقد صنع كل مايستطيع صنعه من أجل رجاله ـ كبر عليه أن يطلب من النمساويين شيئا لنفسه ، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ، وكان النمساويون يحومون حول أسوار سان مارينو التى تحدق بها من ناحيـــة أعاليها الصخرية كما تلوب الذئاب ٠ وقد ظل غاريبالدى فوق سرج جواده ثمانيا وأربعين ساعة ، وكان أشد من ذلك على نفسه أن زوجته كانت كذلك طوال هذه المدة فوق سرج جوادها ، ولم يذق راحة قط ، وقد استراحت هى فى منزل قوم أشفقوا عليها ، وتوسل اليها أن تظل عندهم ، ولكنها رفضت الاستماع اليه ٠

كان غاريبالدى جالسا على حجر خارج المقهى الذى تناول فيــه عشاءه يقرأ خريطته على ضـــوء مصباح واذا به يثب فجأة ويصيح بأتباعه ويركب متجها الى باب المدينة ، وكان على خالصته أن يبتوا فى هذه اللحظة فى مسألة : أيمكثون أم يتبعونه ؟ واندفع خلفه قرابة مائتى رجل منهم وتبعته أنيتا بطبيعة الحال ، ولم يعدهم بشىء أكثر من الموت والنفى ٠

وتسللوا فى ظلمة الليـــل وقد لاذوا بالصمت من الحصــــار النمساوى المضروب حولهم متجهين نحو قاع نهر جاف فى الشمال ، وكان هذا الطريق يفضى الى الودى الضيقة الرهيبة والأخاديد الواقعية بين هذه المنطقة والأرض المنبسطة الى جانب الشاطىء ، وكان من الخطورة بمكان أن يجدوا طريقهم فى الظلام متتبعين أحد الأدلاء المحليين فى أعالى أجراف زلقة وممرات كالخيوط منخفضة الى جانب هاويات ،

ويضاف الى ذلك انه كان هناك عدو يطاردهم من الجانبين ، وظلوا طوال اليوم التالى مشغولين بشق طريقهم فى هذه النواحى الخطرة وحالة أنيتا تزداد سوءا وهى لا تكف عن طلب الماء ، وأخيرا فى نهاية اليوم الأول من شهر أغسطس عبروا نهر دوبيكون وطالعوا البحر الادرياتيكى ٠

وكان لا يزال أمامهم طريق طويل ليعبروا المستنقعات والبطائح المتاخمة للبحر ، وكانت هذه المنطقة فى مقاطعة رومانيا التى كان منها معظم رجال فرقة غاريبالدى المفقودة ، وأمل غاريبالدى أن أهل هذه المنطقة سيعينونه على تجنب النمساويين ، وفى مدينة شيسيناتيكو كان من الضرورى ترك الخيل وركوب الزوارق ، وكانت هذه مخاطرة رهيبة غير مأمونة ، وكان العامل الوحيد الذى يقلل من خطرها هو أن غاريبالدى نفسه كان قبل كل شىء بحارا يحسن قيادة الزوارق ٠

وفى قارب الصيد الذى قاده زوجها كانت أنيتا راقدة وقد بلغ منها المرض وبرح بها الظمأ ، وكانت بقية الجماعة تتبعه فى القوارب التى استولت عليها وكان الجميع تحت رحمة القمر وهو بدر مكتمل الضوء باهره ، وفى أثناء الليل مرت بهم سفينة طوافة تحمل فصيلة من النمساويين وكشفت أمرهم ، وعند مطلع الشمس راقب جماعة من البحارة على الشاطىء ــ وقد اشتد جزعهم ــ الزوارق الثلاثة الرئيسية وهى تمر بسرعة وتهرب متجهة الى الشمال ، ولكن الزوارق الباقية وقعت فى قبضة النمساويين ٠

وأسرع غاريبالدى بزوارقه الثلاثة الى ناحية الشاطىء بين كثبان الرمل ، وكان يحرسه على الشاطىء رجل وطنى اسمه نينو بونيت حارب اخوته تحت قيادة غاريبالدى فى روما ، وكان بونيت يعلم ماهو حادث ، ولولا المساعدة التى قدمها عن طريق اتفاقه مع المزارعين القريبين للقى غاريبالدى مصير أوجوباسى ، فقد كان هــــذا الرجل الشجاع الذى ظل مخلصا الى النهاية فى أحد الزوارق الثلاثة التى

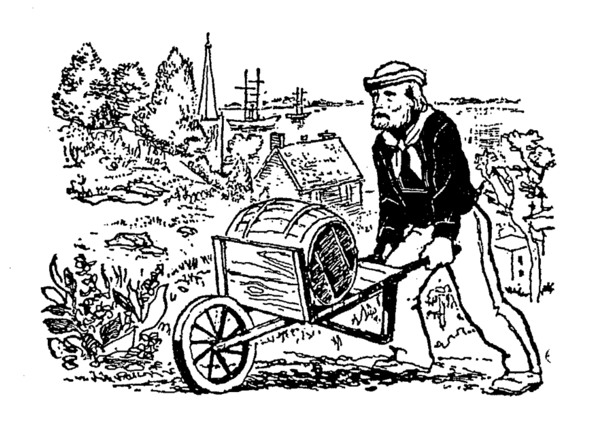


وحمل غاريبالدى من قارب الصيد زوجته المشرفة على الموت .

نجت من القبض عليهـــا ، وأشـــار عليهم غاريبالدى بأن يتفرقوا ويبذلوا ماوسعهم من الجهد فى الهرب ، ولكن النمساويين كانوا فى كل مكان ، وسرعان ما ألقوا القبض على الأب باسى وأطلقوا عليه النار فى بولونيا ، وقد ظل اسمه بها موضع التجلة والتكريم بوصفه من الشهداء منذ ذلك الحين •

وكان غاريبالدى نفسه لا يستطيع أن يسير بسرعة أكثر مما يسمح له بها حمل أنيتا التى لم تعد قادرة على الســـير ، والرجل الوحيد الذى سمح له غاريبالدى بالبقاء معـــه هو صديقه المخلص ليجيرو الذى كان لا يزال يعرج من أثر الجرح الذى أصابه فى روما ، وهكذا كان يسير الرجل المطارد متعثرا وزوجته تعانى سكرات الموت بين يديه وصديقه الوحيد يســـير طالعا الى جانبه ، وكان القائد النمساوى قد أنذر بتوقيع عقوبة الاعدام على كل من يجترىء على مد يد المساعدة للرجل الذى أقسم على قتله ، وفى هذا الاعلان ورد البيان الخالى من الشهامة وهو أن الهارب يمكن الاستدلال عليه بوجود امرأة حامل قد شارفت الوضع معه •

وآوى المزارعون الثلاثة الهاربين وأرشدوهم فى عبور المستنقعات والكثبان معرضين أنفسهم لخطر الموت ، وقد اضطرت هذه الفئة القليلة مرتين حينما ظنت أنها قد وجدت ملاذا مؤقتا الى أن تعاود الهرب لاقتراب النمساويين منها • وأخـــيرا فى مساء اليـــوم الرابع من أغسطس بعد عبور أحد المستنقعات فى زورق لقيتهم عربة حملوا بها أنيتا على حشية لنقلها الى مزرعة ألبان فى ماندريولى ، وفى الضوء الواهن حملوها الى المزرعة وبينما كانوا يضعونها فى رفق على الفراش رأى زوجها أن روحها قد صعدت الى بارئها ، وكان هذا هو الموقف الوحيد فى هذه الأسابيع العصيبة الذى خذلته فيه سيطرته العسكرية على نفسه وأفلت منه زمامها فقد انحلت عقدة صبره واسترسل فى بكاء مر طويل •



الفصل الحادى عشر

العـودة إلى المنفى

كيف يستطيع الحظ أن يتخون الانسان أكثر من ذلك ؟ ففى شهر واحد فقد غاريبالدى روما وفرقته وآخر أتباعه وزوجته المخلصة الوفية ، وكان وحيدا مشردا خالى الوفاض ، والنمساويون يجدون فى طلبه الى حد أن بونيت الطبيب نصحه بألا يتريث حتى لحضور دفن أنيتا .

وعاد مع رفيقه الوحيـــد ليجيرو الى التغلغل فى المستنقعات الملأى بالبعوض ، وتسلل منها عائدا عبر السهول المشتعلة الى اجتياز

الجبال الجرد الموحشة ليصل الى شاطىء توسكانيا الغربى حيث يستطيع أن يركب سفينة الى بدمونت ، وهناك كان الجزء الوحيد من ايطاليا الذى لم يكن فيه غاريبالدى مطاردا ٠

ولكنه حينما وصل الى بدمونت ــ بعد أن تعرض لأخطار تملأ الصدور هولا ــ لم يستطع البقاء فيها آمن السرب ، فقد كان الملك الشاب فيكتور عمانويل لا يزال مقيدا بشروط معاهدة نوفارا التى جاءت به الى العرش ، ولم يجترىء على تحدى النمساويين فى شجاعة الى حد يسمح بايواء غاريبالدى ، وكان فى حاجة الى الوقت ليوطد مركزه ويستعد للجولة الثانيـــة فى المعركة الطويلة لأجل تحرير ايطاليـــا ، ولذلك بعد ان سمح لغاريبالدى بزيارة خاطفة الى نيس لرؤية أولاده الذين فقدوا والدتهم أبعد الرجل المحزون وحمله على العودة الى تجرع كأس النفى المرة ٠

وتوالت الصدمات ، فلم يسمح لغاريبالدى بالنزول فى تونس أو جبل طارق أو أى ثغر آخر من ثغور البحر المتوسط حيث كان يؤمل أن يجد عملا بوصفه قبطانا بحريا ، وأصبح الرجل الذى كان بطلا فى نظر نصف سكان العالم لا يستطيع أن يجد مكانا يلقى فيه رأسه ، وأخيرا دعا قنصل بدمونت فى طنجة الشريد المنفى الى قضاء بضعة أيام فى داره ، ومن هناك فى يونيو سنة ١٨٥٠ أبحر غاريبالدى مرة ثانية الى الدنيا الجديدة ، وفى هذه المرة ذهب الى الولايات المتحدة ٠

ونراه بعد ذلك فى جزيرة ســـتاتن يعيش فى كوخ أبيض مصنوع من ألواح من الخشب يملكه ايطالى صانع شمع اسمه ميكتشى وقد اتخذ غاريبالدى مساعدا له ، وكان العمل المنوط بغاريبالدى هو نقل البراميل الثقيلة الملأى بالشحم من مرسى الزورق الذى كانت تصـــل اليه وتفريغ الشحم فى المراجل الموجودة بالساحة ، وكان

غاريبالدى حينذاك رجلا فى منتصف العمر يشكو من داء المفاصل (الروماتزم) ولكنه كان يقوم بهذا العمل المهين ويتقاضى لقاءه أجرا زهيدا دون تذمر ، وتعلم قليلا من اللغة الانجليزية وصار له أصدقاء وكان موضع الاعجاب الشديد للشمم الهادىء الرزين الذى احتمل به الأرزاء التى رماه بها الدهر ٠

ولكنه لما ذهب الى أحواض السفن فى جزيرة ستاتن يلتمس العمل فى السفن بوصفه بحارا عاديا لم يقبل أحد أن يستخدمه ، وظل يعمل عند ميكتشى حتى جاء الى نيويورك صديق له قديم سنة ١٨٥١ وأخذه معه فى رحلة قصيرة لبعض الشئون العملية الى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ٠

وكانت هذه الرحلة نقطة تحول فى حياته ، ففى ليما ببيرو أسندت اليه قيادة سفينة شراعية لحمل سنوى الى الصين والعودة منها ، وهذه الرحلة حملته الى البحار الجنوبية واستراليزيا ، ولكن لم تكن هناك مسافة من التباعد والامتداد فى العالم بحيث تنسيه ايطاليا وقطعه على نفسه عهدا بأن يعود اليها يوما ويحارب لتحريرها٠

وفى سنة ١٨٥٣ سار فى رحـــلة أخرى حول رأس هورن الى نيويورك ، وهناك عهد اليه بقيادة سفينة تجارية ذات قلعين اسمها « كومنولث » ، وكانت هذه السفينة تحمل حملا الى نيوكاسل فى انجلترا لمبادلته بفحم تحمله الى جنوا ، وهكذا كانت عودة غاريبالدى الى ايطاليا الحبيبة فى ربيع سنة ١٨٥٤ ٠

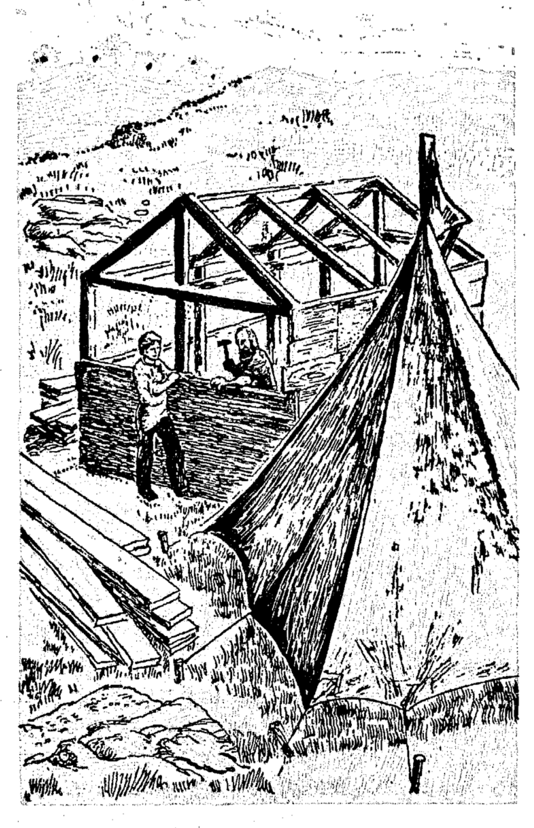
وقضى شهرا فى طريقه بانجلترا ، ورأى متزينى مرة ثانية ، وظهرت كل وجوه الخلاف القديم بينهما ٠ وكان غاريبالدى مستعدا لاستئناف الحرب ، ولكن على شريطة أن يكون ذلك عندما يشعر بأن الوقت المناسب قد حان ، وكان متزينى على اتصال دائم بالوطنيين

والثائرين الذين يعملون خفية فى جميع أجزاء ايطاليا الأسيرة ، وقال ان صقلية ناضجة للثورة وأراد أن يحمل غاريبالدى على الذهاب اليها ليقود الثـــورة ، ولكن غاريبالدى كان يعـــلم أن متزينى غير عملى ولا واقعى ، فأجاب بأنه سيذهب الى هناك حينما يرسل اليه أهل صقلية الدعوة .

وهكذا عاد الى ايطاليا بعد حوالى خمسة أعوام واستقر فى نيس مع أولاده ، وكانت المسائل السياسية قد هدأت هدوءا كافيا وذهبت حدتها ، ولذلك أصبح الأمر الثانى الصـــادر بنفيه لاغيا مثل الأمر الأول ، وترك فى سلام ، ومات أخوه بعد ذلك بقليل وترك له مقدارا مناسبا من المال ، وبهذا المال مضافا اليه ما استطاع أن يقتصده فى مدى ثلاث سنين ــ وهو يعمل قبطان سفينة ــ صمم على أن يبنى لنفسه ولأولاده منزلا .

واختار لذلك جزيرة كابريرا ــ وهى جزيرة صخرية موحشة فى أقصى الطرق الشمالى لجزيرة سردينيا الواسعة ــ واشترى غاريبالدى لنفسه هنـــاك مكانا موحشا منعزلا تمر به الرياح العاصفة العنيفة ولا يمكن استصلاحه للزراعة الا ببذل جهود شاقة ، وكان لا يمكن الوصول اليه الا بزورق يأتى من اليابسة مرة واحدة فى الشهر ، ولم يكن هناك منزل قائم فى الأرض التى اشتراها غاريبالدى ، وعاش فى أول الأمر مع ابنه مينوتى فى خيمة كانت الرياح فى بعض الأحيان تحملها بعيدا فى الليل ، فى الوقت الذى كان يبنى فيه كوخا خشبيا مؤقتا أحضر فيه تيريسيتا وريكشيوتى ، وبنى بعد ذلك غاريبالدى بمساعدة أولاده وأصدقائه البيت الأبيض الذى عاش فيه بقية حياته، وكان هناك ينحت الصخر ويفلح الثرى الجعد ويتعهد خرافه ومعزه .

وفى الوقت نفسه كانت تحدث فوق أرض ايطاليا المضطربة أحداث هامة .



على هذه الجزيرة الصخرية أقام هو وابنه كوخا صغيرا •

وظهر قائد جديد فى الحركة التى قدر لها أن تخلق ايطاليا الحديثة ، وكانت هذه الحركة تسمى حركة الاحياء ، وكان معنى ذلك أن تولد ايطاليا من جديد بمعنى أوسع كثيرا من المعنى السياسى ، كان معنى ذلك خلق روح جديد من القوة والكرامة القومية فى جميع نواحى الحياة الايطالية ، وقد عبر الأدب والفن عن هذه الروح تعبيرا قويا وظهرت آثارها فى جميع الايطاليين ولم يشذ عن ذلك غير الذين كانوا فى أقصى درجات التخلف •

وكان أحدث الشخصيات السياسية البارزة فى هذه الحركة هو الكونت كاميللو كافور رئيس وزراء مملكة بدمونت ، وكان من الأشراف على خلاف متزينى وغاريبالدى ، وكان رجل دولة من الطراز الأول بارعا وقديرا وسياسيا مجربا ورجلا عمليا ودساسا اذا اقتضى ذلك الأمر ، وكان ولاؤه الأول للملكه فيكتور عمانويل لا للشعب الايطالى ، وكان هدفه أن يصبح هذا الملك حاكما للايطاليين جميعا •

وعمل كافور كل حيلة معروفة فى السياسة لتحقيق هذه الغاية ، وكانت المحالفات بين الأمم حينذاك جزءا لا ينفصل عن الاستعداد للوقوف فى أحد الصفين المتنافسين وهو الوقوف الذى يحدد مصائر الدول والرجال كما هو الآن ، وكان كافور من الدهاء بحيث رأى أن العدو الأكبر ، من بين عدوى ايطاليا الأجنبيين ، هو النمسا ، وأن فرص طرد النمسا من ايطاليا لا يمكن تحقيقها الا بالاستعانة بالعدو الآخر القديم لايطاليا وهو فرنسا •

ولذلك عقد محالفة مع نابليون الثالث الذى حارب المدافعون عن روما فى سنة ١٨٤٩ سياسته الغادرة وجيوشه الجرارة الكثيفة ، وقد أثار ذلك حنق غاريبالدى حينما سمع به ، ولكن كافور لم يحفل بذلك ، وبالرغم من أنه كان على مايبدو قليل التقدير لرجل الشعب

فانه كان يعرف قدرة غاريبالدى على أن يلهم الرجال المحاربين ويوحد صفوفهم حوله ، وعرف الداهية كافور أن مايعمل هو الاستفادة من غاريبالدى حينما يحتاج الأمر الى عبقريته فى حرب العصابات ، وربما بدا له أن يفعل ذلك وهو يتظاهر بأنه لا يدرى من الأمر شيئا . أما فى باقى الوقت فان غاريبالدى يترك فى عزلته بجزيرة كابريرا .

وكانت خطة كافور المباشرة بعد عقد المحالفة الفرنسية هى تحرير لمباردى وفينيقيا من النمساويين ، وذلك بأن يستحدث نوعا من الهجوم النمساوى على بدمونت الذى يبدو أنه وقع بغير استفزاز والذى يعجل بنشوب الحرب ، وراقبت أوربا هذه الحيل فى شىء من القلق،ولم يكن هناك انسان من الحماقة بحيث يعتقد أن فرنسا تساعد على خلق ايطاليا قوية فى حين أن سياستها الحقيقية كانت قائمة على منع أى أمة مفردة من أن تصبح قوة جديدة فى القارة ، وقد كانت النمسا مصدر تعب كاف لفرنسا ، وقد كانت كذلك منذ عهد نابليون الأول .

وكانت فكرة امبراطور الفرنسيين هى أن ايطاليا يجبأن تصبح مجموعة من الولايات بينها اتحاد فيدرالى يربطها بعضها ببعض ربطا غير وثيق ، وأن تحرر من النمسا ولكنها تكون تحت حمايته وحماية البابا ، وبدمونت وحدها هى التى تظل كما كانت قطعة مستقلة فى شبه الجزيرة ، وكان الداهية كافور لا يرى بأسا فى بقاء هذا اللون من التفكير فى ذهن نابليون الثالث طوال مدة الانتفاع به فى تحقيق أهدافه .

وقرب انتهاء سنة ١٨٥٨ بدأت خطة كافور فى النضج ، وقد شجع الوطنيين الذين يعملون فى الخفاء فى كل أنحاء ايطاليا على التسلل الى بدمونت وتسجيل أسمائهم فى قوائم جيشها ، وقد وفد عليها ألوف من المتطوعين ، وعمل كافور على أن يثير هذا وأمثاله من الاستفزازات النمسا الى الاحتجاج والتحذير ، وصارت الحرب وشيكة

الوقوع ، وأرسل كافور ثلاث مرات فى السر الى « ناسك كابريرا » . وفى مارس سنة ١٨٥٩ جاء غاريبالدى الى تورينو ليتلقى الأوامر الاخيرة ، والخادم الذى أعلن مجيئه قال ان الزائر رفض أن يذكر اسمه .

« انه يحمل فى يده هراوة وقبعة كبيرة ويقول انه على موعد . فقام كافور واقفا وقال : «أحضروه» . ودخل رجل قد لوح الجو وجهه ثابت العينين ، تبلغ سنه الواحدة بعد الخمسين ، له لحية سوداء تشوبها شعرات بيضاء ، ويدان أحالهما العمل اليدوى المتواصل الى يدين خشنتين ، وتلقى فى هدوء الأوامر الموجهة اليه وهى الترخيص له باعادة تكوين فرقة المتطوعين الغاريبالديين ، ومن خصائص كافور المميزة أنه أعطى غاريبالدى هذه القيادة المستقلة بدلا من أن يلحقه بجيش بدمونت ، وهذا يجعل لغاريبالدى أكبر تأثير فى الناس فى جميع أنحاء ايطاليا ويدعو الذين سبق لهم أن حاربوا تحت راية غاريبالدى الى مناصرة القضية .

وبعد مقابلة غاريبالدى لكافور أخذ للمثول بين يدى مليكه فيكتور عمانويل ، وذابت المرارة والحقد القديم والنفى ونكران الجميل فى حرارة ولائه لملكه وسروره لأن ساعة العمل قد حانت .

وذهب غاريبالدى الى جنوا فى هذه الليلة وأرسل الدعوة الى رجاله ، فأسرعوا اليه وانثالوا عليه من كل فج ، ضباطه القدامى مديتشى ونينوبيكسيو وكوسنز وكل الباقين على قيد الحياة من الذين حاربوا فى روما واشتركوا معه فى الانسحاب الرهيب ، ولم يكد يتخلف منهم أحد ، وفى اليوم السابع والعشرين من شهر ابريل غزت النمسا بدمونت ، وهو ماكان يعمل كافور الحيلة لوقوعه ، وأعلنت الحرب ، وقاد غاريبالدى رجاله لطرد العدو من أرض ايطاليا ، وتقدمت فرقة غاريبالدى هذه المرة على نغمات نشيد غاريبالدى الذى أصبح بعد ذلك نشيدا قوميا .



الفصل الثانى عشر

تحرير لمبباردى

أقبل الشبان من جميع أنحاء ايطاليا الشمالية وايطاليا الوسطى على الانضمام الى غاريبالدى وعصبته من المجاهدين المدربين الموثوق بهم، وجاءوا جميعا وقد امتلأت نفوسهم حماسة لقضية تحرير ايطاليا ، وكان بعضهم فقيرا ليس عنده مايقدمه سوى قوته وشجاعته ، وكثير منهم كانوا من أبناء الأغنياء والأسر الوطنية فى ميلانو وجنوا التى ربت أبناءها على عبادة بطل روما ، وهؤلاء الشبان المتطوعون أحضروا معهم أسلحة جيدة وقرابينات أعدها لهم آباؤهم ، وكان هذا من الحظ

الحسن لأن الادارة الحربيـــة فى بدمونت كانت تستشعر الغيرة من شهرة غاريبالدى وتنفس عليه قيادته المستقلة ، وقد تعمدت اغفال أمر كافور بتزويده بالأسلحة اللازمة والمؤونة وكانت الفرقة الجديدة تسمى فرقة صائدى الألب ، وكانت مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل موزعين على ثلاثة أقسام ، وكل قسم حول نواة من الضباط القدامى والمدربين الذين حاربوا فى روما ، ولم يرتد أفراد الفرقة هذه المرة القمصان الحمر لأن الفرقة كانت تحارب فى خدمة بدمونت ، وكان غاريبالدى يلبس كسوة قائد فى الجيش البدمونتي ، وأعطيت لرجاله بذلات كالتى يرتديها الجنود النظاميون ، وكان هذا هو كل ما أعطى للفرقة ٠

أما الأسلحة التى زودت بها الفرقة فكانت أسلحة من الطراز القديم القريب المدى والذى بطل استعماله ، ولم تعط لها مدافع ولا خيل ، وكان مع الفرقة خمسون حصـــانا للاستطلاع جاء بها أصحابها المتطوعون ولم يكن هنـــاك خيل ولا عربات لنقل الجرحى ولا مستلزمات المستشفيات ، ولم يكن هنـــاك تعيينات للفرقة على الاطلاق ، وكان الرجال يطمعون فى مساعدة السكان المحليين الذين كانوا يعجبون بهم ، وكان هذا هو حال جنود غاريبالدى على الدوام ٠

والسلاح الوحيد الجيد الذى صرف لكل جندى هـو السونكى (حربة البندقية) ، ولذلك كان القتال بالأســـلحة الفولاذية الذى يشتبك فيه الجنود اشتباكا متلاصقا هو القتال الذى برز فيه صيادو الألب ومعظمهم من نابتة الشبان الذين نشأوا فى المدن وقد تغلبوا على رماة التيرول والجيوش المجرية المحترفة فى الجيش النمساوى ٠

وبعد تكوين الفرقة بثلاثة أســـابيع وتدريب أفرادها تدريبا سريعا ذهبوا الى الألب فى شمال ميلانو للقيام بما عهد اليهم ، وهو

ازعاج الجيوش النمساوية المتقهقرة والتى هزتها فى سهل لمباردى جيوش بدمونت وفرنسا وأرغمتها على الارتداد الى ممر برينر ، وكانت المعركتان الكبيرتان فى هذه الحرب الصغيرة هما معركة ماجنتا ومعركة سولفرينو ، ولقد اشتهرتا فى التاريخ ، ولكن لولا صنيع صيادى الألب الذين كانوا ينتظرون متأهبين لسحق النمساويين وهم يتجهون الى الشمال لما كان لهاتين المعركتين شأن •

وكانت المنطقة الجبلية جميعها ملأى بالشرطة النمساوية ، ولم يكن عمل غاريبالدى مقصورا على مطاردة الجيوش المنهزمة ؛ فقد كان عليه كذلك أن يجلى المحتلين عن مدن لمباردى فى أقصى الشمال التى طال احتلالهم لها،وهذه المدن تمتد من بحيرة ماجيورى الى بحيرة جاردا وهى تشبه الحزام حول الجزء الأعلى من ايطاليا ، وهـذه المدن هى فاريز ، وكومو ، وليككو ، وبرجامو ، وبرسشيا •

وأهل هذه المدن ومنطقة البحيرات الجميلة التى تشملها شجعان وجبليون صلاب العود ، وتتكون منهم اليوم أحسن الجيوش الايطالية ، وقد امتلأت نفوسهم حماسة وعمهم الابتهاج وشعروا بالعزة والكبرياء لأن غاريبالدى قد أرسل الى ديارهم ، وساعدوه مساعدة محبى الحرية المتحمسين لها المتفانين فى حبها • وكان الفلاحون المحليون يعملون مرشدين فى ممرات الجبال المضلة ويدلون القائمين بالهجمات الخاطفة على الطريق ، وكانت طريقة الهجوم الخاطف هى أسلوب غاريبالدى فى محاربة القوات التى تفوقه عددا •

وكان أول أمر يصدره القائد حينما يتقدم فى المنطقة الجبلية هو أن يتركوا خلفهم مزاودهم التى تعوق حركاتهم ، وألا يحملوا معهم شيئا أكثر مما يمكن ادخاله فى أكياس الخبز والجيوب الواسعة الذى أمر بأن تخيط وتلصق فى كساويهم ، ولذلك اكتسبوا السرعة وخفة

الحركة ، وبطبيعة الحال كان يمكن أن ينال منهم الجوع ، ولكن كل منزل فى الريف كان متلهفا على اطعامهم وفخورا بذلك ، وفى كل مكان كانوا يذهبون اليـــه كان السكان يتركون حقولهم وأنوالهم ومناضد عملهم ليسرعوا اليهم ويهتفوا لغاريبالدى وايطاليا ٠

وبعد تحرير فاريز تحرك غاريبالدى ليحاول تحــرير كومو الواقعة عند طرف البحيرة الرائعة المسماة باسمها والمحفوفة بالجبال ، وهو موقع كان يمكن أن يمكن النمساويين من الدفاع عنها فى سهولة ولكن القائد غلبهم بحيله الخادعة البارعة ، وذلك بأن وضع كوسنز الذى كان موضع ثقته فى مكان غير هام مع فصيلة من الجند ليحول انتباه النمساويين عن هدفه الأصلى ، وانقض على كومو ذاتها بهجوم من الجناحين أوقع المدافعين المجريين فى مصيدة ، وتوقع غاريبالدى أن المدافعين عن المدينة سيثبتون فى الميدان الواسع الذى تجمعوا فيه، ولكن حينما دخل المدينة الصغيرة وقد خيم الظلام ومر بمنازلها التى كانت نوافذها تتوهج بالضوء وهو يدنو منها وجد نفسه محاطا بالأهالى الفرحين بدلا من أن يقابل باطلاق الرصاص من العدو ، كان القائد المجرى قد جلا عن المدينة بجنوده جميعا ٠

ولم يكد يمر أسـبوعان على الغزو الألبى حتى هــزم الجيش الفرنسى النمساويين فى معركة ماجنتا العظيمة فى اليوم الرابع من شهر يونيو ، وترك غاريبالدى كومو فى يد أهلها المواطنين المدافعين عنها وأخذ يطارد العدو فى الجبال ، وكان عدد رجاله يبلغ أربعــة أضعاف جنود غاريبالدى ، ولكنه حينما سمع أن النمساويين يفرون من ماجنتا رأى أن عليه أن يقوم بحركة سريعة ليصل الى شرقى بحيرة كومو قبل قدوم النمساويين حتى يقعوا فى قبضته وهم متقهقرون ٠

وكان أصحاب الزوارق المحلية والصيادون مستعدين بزوارقهم، وركب صيادو الألب الزوارق وعلى رأســهم غاريبالدى ، وحملتهم

الزوارق من أحـــد فروع البحيرة الى الفرع الآخر ليصلوا الى مدينة ليكا الواقعة فى شرقى البحيرة ، ووقف الناس فى جميع الطرق على الشواطىء الخضر الجميلة يهزون الأعلام ويلوحون بالأزهار ويهتفون قائلين « ليحيى غاريبالدى ، ولتحيى ايطاليا » ٠

وكانت جميع الجيوش النمساوية المتقهقرة متجهة الى ناحيـــة بعينها وهى المنطقة المسماة بالرباعية الأضـــلاع والتى يحدها من أركانها الأربعة أربع مدن حصينة فى فينيتيا شرقى لمباردى ، وفى شمال هذه المنطقة مباشرة ممر برينر ، وكان أمل كافور وغاريبالدى كذلك أنه مادام النمساويون ممعنين فى التراجـــع فانه يصبح من الميسور اخراجهم جملة من حصونهم الايطالية القديمة ، ولم يحدث هذا بالسرعة المرجوة ، ولكن الصدمة الاولى أجلتهم عن لمباردى ٠

ولأجل أن يحدث هـــذا كان على غاريبالدى أن يسبقهم وهم يحاولون الاعتصـــام بمدينتى لمباردى الأخيرتين ، وهما : برجامو وبريسشيا ٠ وقد اشتهر أهل هاتين المدينتين بالشـــجاعة الثورية وكراهة النمساويين،وكانت الطرق الرئيسية غاصة بالعدو المنسحب، ولذا عمد غاريبالدى ورجاله الى ســـلوك طريقين متوازيين فى أعلى الجبال وانحدروا منقضين فى هجمة خاطفة أذهلت قوات تفوقهم عددا وأضعفت روحها المعنوية ٠

وكان الكثيرون من الجنـــود النمساويين من الجهلة البدائيين والمجندين من مقاطعات البلقان النائية فى الامبراطورية النمساوية ، وقد غلب عليهم الاعتقاد بأن هذا القائد السريع الحركات وجنوده من الشبان اللامعين قد عقدوا حلفا مع الشيطان ، ورووا قصصا مضمونها أنهم رأوا « غاريبالدا » ــ كما كانوا يسمونه ــ فى وسط القتال فى كومو وفاريزى والرصاص يتطاير من سترته مثل حبات البرد ، وأقسموا أنه يشوى الأسرى ويأكل لحمهم ٠

ولم يكن ضباطهم بهذه المرتبة من الجهل ، ولكنهم كانوا مثلهم يخافون خوفا شديدا من قائد حرب العصابات الرهيب ، وقد وصف أحد ضباطه المنظر حينما أحضر ستة من الضباط النمساويين الذين وقعوا فى الأسر أمام غاريبالدى ، وكانوا ينتظرون دون أدنى شك أنهم سيذبحون فى المكان نفســـه ، وبدلا من ذلك وقف القائد الهادىء السرب الفخم المنظر على قدميه وصافح الأسرى فردا فردا مثنيا على شجاعتهم وباذلا لهم عطفه ليهون عليهم بلواهم ٠

وأسرع أهل الجبل فى برجامو وبريسشيا والقرى الواقعة فى الطريق الى مساعدة غاريبالدى وتيسير مهمته ، وتطوع عدد ضخم من أبنائهم وانضموا الى جيش غاريبالدى حتى صارت ثلاثة الآلاف الأصلية اثنى عشر ألفـــا ، وانطلق الرماة الألبيون الى الأمام كمارج من نار الوطنية ٠ وقد كتب أحد المشاهدين يقول : « حينما كان غاريبالدى يمر بقرية كنت لا تقول انه قائد ، وانما هو صاحب ديانة جـــديدة يتبعه جماعة من المتعصبين » ٠ وكان غاريبالدى يتحدث الى هذه الجموع الغفيرة بصوته العذب قائلا : « تعالوا . ان من يظل قابعا فى بيته لجبان، انى أعدكم بالتعب والمشقة والمعارك ، ولكننا سننتصر أو نموت » ٠ وقد انتصروا ، ولكن التحرير الكامل لايطاليا لم يتم فى ذلك الوقت ولا فى ذلك المكان ، وقد انتهت حرب سنة ١٨٥٩ بمعركة سولفرينو فى سهل لمباردى ، ولم يشترك غاريبالدى فى هذه المعركة لأنه كان لا يزال مجاهدا فى الجبال ، وفى هذه المعركة قام النمساويون بآخر محاولة لاسترداد مقاطعاتهم اللمباردية ولكنهم هزموا وطردوا نهائيا ، وكان فيكتور عمانويل وكافور وغاريبالدى وكل وطنى ايطالى الى آخر رجل مستعدين لمدافعة النمساويين واجلائهم الى الأبد من ايطاليا ٠

ولكننا نذكر أن هذه الحرب اللمباردية كانت من نتائج المحالفة التى عقدها كافور مع نابليون الثالث الذى سبق أن رأينا خداعه فى

هذه القصة عن تحرير ايطاليا ، ومرة ثانية عاد الامبراطور الفرنسى الى الجرى على طبيعته،فبعد معركة سولفرينو مباشرة قابل النمساويين سرا فى فيلا فرانكا وعقد معهم صلحا فجائيا ، وكاد كافور يجن من الغضب والحزن ، ولـــكن ملكه ظل محتفظا برزانته بحيث رأى أن بدمونت لا تستطيع مواصلة الحرب منفردة ، وأن على الايطاليين أن ينتظروا الزمن ويغتنموا الفرصة كلما لاحت .

وهكذا حررت مقاطعة لمباردى وانضمت بارادتها الى مملكة بدمونت ، ولكن مقاطعة فينيتيا الكبـــيرة كانت لا تزال فى قبضـــة النمساويين ، وحاول نابليون الثالث بموجب شروط معاهدة فيلا فرانكا أن يرغم توسكانيا ودوقيات ايطاليا الوسطى على العودة الى حكم الدوقات الذين تحميهم النمسا وأن يجعل مقاطعة رومانيا تحت حكم البابا الذى تحميه فرنسا ، ولكن هذه الأجزاء من ايطاليا التى كانت قد أخذت تتطلع الى الحرية المستوحاة من حركة سنة ١٨٥٩ لم يكن من السهل تحريكها فى لعبة الشطرنج السياسية ، ولكى تظفر بنصير يؤيدها ويشد أزرها اتجهت الى ملك بدمونت والحكومة البريطانية ، التى ظلت حتى ذلك الوقت بعيدة عن الشئون الايطالية، واعتمادا على تشجيع هاتين الحكومتين رفضت هذه الولايات شروط معاهدة فيلا فرانكا .

فحرب سنة ١٨٥٩ كانت من أجل ذلك خطوة أكبر نحو ايطاليا المتحدة من تحرير لمباردى وحدها ، والأرجح أن أعظم نتائج هـــذه الحرب ــ التى لم يشترك غاريبالدى فى معاركها الرئيسية ــ هى أنه خرج منها بوصفه معبودا للشعب الايطالى وقائدا لارادتهم للحرب ، وفى غزوته الألبية الخاطفة وجد الفرصة لتدريب الشبان الجريئين الذين كانوا سيقومون بمغامرة من أحفل المغامرات التى عرفها تاريخ الحرية الطويل بالبطولة وأشدها اثارة للمشاعر .



الفصل الثالث عشر

ابحار الألف

وكان غاريبالدى مثل كافور قد صدمته معاهدة فيلافرانكا ، وقد بلغ الغضب من كافور كل مبلغ حتى دفعه الى تقديم استقالته من رياسة الوزارة واعتزاله حينا من الزمن ، أما غاريبالدى فانه توقف فى معمعان الحرب ورفض أن يترك مكانه وذهب مع خيرة ضباطه ورجاله لمساعدة مقاطعة رومانيا على مقاومة المعاهدة البغيضة .

وكان قد وصل الى ايطاليا الوسطى حينما أرسل اليه الملك فيكتور عمانويل ، وأقنع الملك ـ الذى صحبته الحكمة حتى فى غيبة مستشاره اللامع كافور ـ غاريبالدى بأنه من الجنون التورط فى عمل

سريع ضـــد السياسة الفرنسية فى حين أن الانتظار أو مصابرة الحوادث قد يثبت أنه قد يكون هناك طريق أحسن لضم ايطاليـــا الوسطى الى المملكة المتحدة ، ومكان الثورة المكشوفة يجب أن يكون مملكة نابولى وجزيرة صقلية ، ولكن لا يمكن أن يفكر انســـان فى تحريرهما الا اذا ضمت مجموعة المقاطعات الوسطى لمملكة بدمونت أولا ، والأفضل أن يكون ذلك بالطرق السلمية .

وكان غاريبالدى رجلا عاقلا مواليا لمليكه ، فاستمع اليه وعمل بنصيحته ، وعاد الى جنوا مع ضباطه المحبوبين مديتشى وبيكسيو وغيرهم ومعه قرابة ألف من صائدى الألب ، وقبل أن يبرح تورينو قبل من الملك هديته وهى بندقية رش جميلة كانت خاصة به ، ولكنه رفض رتبة جنرال دائم فى الجيش البدمونتى ، كان يريد الاحتفاظ بحقه فى أن يعيش ويحارب على طريقته فى شجاعة وبساطة وبوصفه رجلا مكتمل الحرية .

وبينما كان غاريبالدى يقضى النصف الثانى من سنة ١٨٥٩ مترقبا منتظرا لم يتوقف هو ولا الحوادث عن الحركة ، وكانت نابولى وصقلية تعانيان أحوالا سيئة ، وقد زاد عسف الحكومة بالأهالى عما كان من قبل ، وكانت السجون والمعتقلات غاصة بزهرة الوطنيين فى جنوب ايطاليا ، وكانوا يذوون ويتضورون جوعا فى أحوال فظيعة ، ولم يغير هذه الأحوال السيئة موت الملك بومبا فى مايو سنة ١٨٥٩ ، كانت البلاد مختنقة فى قبضـــة الشرطة والجواسيس والقساوسة القساة ، وكان ملك نابولى الجديد فرنسيس الثانى أبله مترددا واقعا تحت رحمة حكومته الطاغية الوحشـــية مثل خصـــومها المطاردين المعذبين .

وفى أول سنة ١٨٦٠ أثبتت الحوادث صحة حكم الملك فيكتور عمانويل ؛ فقد عاد كافور الى منصب رياسة الوزارة وكان قد وجد

متسعا من الوقت ليفثأ غضبه ، وتهدأ ثورته ، ويثوب الى نفسه الماكرة ، وكان أول شيء عمله هو الاستفادة الى أقصى حد من ادراك نابليون أن معاهدة فيلافرانكا لا يمكن فرضها بالقوة ، وأنه ليس هناك سبيل لعودة توسكانيا والدوقتين المتحدتين اللتين تسميان اميليا ورومانيا الى الحالة السابقة ٠

وأخذ كافور يتحسس طريقه ويتلمسه فى حذر واحتياط ، وبدأ يتعامل مع نابليون الثالث ، وكان قد فسد مابين نابليون الثالث والبابا حتى أصبح غير عابىء باعادة الولايات الثائرة اليه ، ووافق نابليون على أن يتخلى عن معارضته فى ضم توسكانيا واميليا الى مملكة بدمونت ، وأجرى استفتاء عام لسكان هاتين المقاطعتين وأثبت الاستفتاء أن هذا الضم هو مايرغب فيه سكان المقاطعتين، ولكن نابليون تقاضى ثمن ذلك ، وكان هذا الثمن هو التنازل لفرنسا عن سافوى الواقعة فى أقصى الركن الشمالى الغربى لمملكة بدمونت وتلك القطعة الصغيرة من شاطىء البحر المتوسط التى تشمل نيس ، وأقر كافور الصفقة وهو يفرك يديه مغتبطا ٠

وتلقى غاريبالدى هذه الأخبار بثورة من الغضب والحزن ، ولا يعلم المدى الذى كان يذهب به اليه حنقه على كافور الذى جعله « أجنبيا » على حد قوله ، فمسقط رأسه ومكان نشأته الايطالى قد بيع لفرنسا ولهذا المحتال المتقلب نابليون الثالث ، وقدم غاريبالدى تورينو فى أول ابريل قاصدا مهاجمة كافور فى مجلس النواب ، ولكن سرعان ماتحول التفاته الى أخبار جديدة حجبت كل شيء آخر ٠

فصقلية قد أعلنت الثورة ٠ وكان نشوب الحرب الحقيقية مفاجأة، ولكن القدر التى جاشت وفارت كانت تغلى منذ زمن طويل ، وبطبيعة الحال كان لغاريبالدى اصبع فى ذلك ، وكذلك كان متزينى يستثير

الصقليين من لنـــدن ، وكذلك كان يفعل فيكتور عمانويل وكافور ولكنهما كانا يتظاهران بأنهما لا يعرفان شيئا عن ذلك ، ولم يكن فى وسعهما أن يظهرا فى صورة المتآمرين على قلب مملكة نابولى فى حين أن العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين على مايرام من الناحية الرسمية.

ولذلك كان لابد من أن يظل الجزء الخاص بغاريبالدى فى ثورة صقلية سرا ، ولم يكن فى استطاعة فيكتور عمانويل أن يرسله جهارا نهارا للمحافظة على وعده للصقليين بالمساعدة حينما يطلبونها منه ، وقد سألوه المساعدة الآن ، وكان موقف غاريبالدى ـ بوصفه فردا عاديا ـ غير مرتبط بأحد ولا محسوبا على أى حكومة له قيمة كبيرة ، ولا مناص من أن تأخذ هذه الحملة الى صقلية صورة المغامرة الخاصة ، وهى فى الواقع كانت كذلك •

وكان الاستعداد لهذه الحملة يجرى سرا منذ شهور مضت ، وكان المواطنون المياسير وبخاصة أهل ميلانو وجنوا يقدمون المال اللازم لشراء الأسلحة والمؤن والذخيرة لما كان يسمى « رصيد المليون بندقية » وكان غاريبالدى قد أذاع خططه الاذاعة الكافية لانضمام ضباطه المخلصين اليه جميعهم وكذلك كثير من الشبان الذين حاربوا مع صيادى الألب وعادوا من ذلك الحين الى ديارهم •

واتخذ غاريبالدى مقرا لقيادته المشوبة بالخفاء منزلا فى أرباض جنوا يسمى فيلا سبينولا ، وسرعان مابدأت تعج بالحركة والنشاط ، وجاءته أفواج متلاحقة من الشبان المتطوعين وقدامى الجنود المدربين • وكان مديتشى وبيكسيو مشغولين بتنظيم القوات ومترقبين السفينة « التى تحملنى الى صقلية مع بعض الرفقة » ـ كمـــا كان يقـــول غاريبالدى •

وكان الرجال الأكبر سنا ـ مثل الدكتـــور برتانى الجنوى والمشرفين على رصيد المليون البندقية من أهل ميلانو ـ دائمى التنقل بين جنوا وميلانو وتورينو لا يألون جهدا فى الحصول على بنادق انفيلد الخاصة بالرصيد من ترسانة ميلانو ، ومما أثار دهشتهم أن القيم على مستودع الأسلحة رفض تسليمهم البنادق المطلوبة ، وكان هذا العمل المحرج الباعث على الغيظ والحنق جزءا من المثبطات والعقبات الجمة التى اعترضت سبيلهم ، وكان مرجع بعض تلك العوائق الى الشكوك الخطيرة التى حامت حول مدى انتشار الثورة فى صقلية التى سرعان ما ظهر أنها قد أخمدت،وجانب أكبر من البلبلة واضطراب الأمور كان مصدره سلوك كافور الدبلوماسى الدقيـــق فقد كان ذلك السلوك يقتضيه أن يظهر فى صورة الذى يعمل على توهين موقف غاريبالدى .

وكان غاريبالدى فى بادىء الأمر قد انتوى الاكتفاء بمصاحبة مائتى رجل الى صقلية ، ولكن فى الأيام الأخيرة من ابريل رأى أنه لابد من أن يرتفع عدد الرجال الى ألف رجل اذا كانت ستتاح للحملة فرصة النجاح ، وكان جيش البوربون فى صقلية يتجاوز عشرين ألف جندى ، وكان هناك جيش آخر من ثلاثة الى أربعة أضعاف هذا الجيش فى جنوب الجزيرة الايطالية للقاء غاريبالدى اذا حدثته نفسه بالذهاب الى هنالك .

وقد كانت هذه الحملة ، كما يبدو ، مخاطرة من أخطر المخاطرات وأشدها جنونا ، ولكنها فى الوقت نفسه من أكثر المخاطرات التى قامت بها جماعة من الناس جرأة وبسالة .

وتجاهل الناس فى شمال ايطاليا أسطورة سرية هذه الحملة ، وقام المواطنون جميعا قومة رجل واحـــد لمساعدة غاريبالدى بكل مايملكون ـ بأبنائهم وأموالهم ومؤنهم وعواطفهم المؤتلفة نحو أقدس

قضية فى تاريخ ايطاليا ـ ونشبت الفروق الطبقية والسياسية ، ووقف الأغنياء والفقراء وأصحاب الامتيازات والعمال صفا واحدا ، وتبارت المدن فى تكوين اللجان لجمع الأموال من أجل المغامرة التى سيقوم بها غاريبالدى •

وبلغت حماسة التطوع للالتحاق بالحملة أشدها بين الشبان حتى صار من الصعب على الضباط الاختيار من بينهم ، وقد توجت مدينة بافيا وطنيتها التقليدية بارسال خمسة اخوة من احدى الأسر البارزة ـ وهى أسرة كيرولى ـ ولم يعد منهم لأمهم الثكلى سوى واحد منهم ، وسجلت مدينة برجامو الصغيرة التى كانت مسرحا فى العام السالف للحرب الألبية فخرا فى التاريخ الايطالى لنفسها ؛ اذ أرسلت عددا من الرجال أكثر ممن أرسلتهم أى مدينة أخرى ، وعند بدء تحرك القطار متجها الى جنوا حاملا مائة من الذين وقع عليهم الاختيار من أهل برجامو تلبية لطلب غاريبالدى كان به ثلثمائة وبعد معركة حامية للوصول الى العربات تختلف مائتان آخرون ظلوا صاخبين صارخين على الطوار ، وقد أبحر مع الألف مائة وستون من هؤلاء الشبان المتحمسين •

وقد أطلق دائما على حملة غاريبالدى الى صقلية هذا الاسم البسيط « الألف » • وقد أصبح كلمة ساحرة خلدتها الأغانى وقصائد الشعر والأقاصيص والروايات ، وهم عند الايطاليين مثل رجال الميليشيا من ليكسنجتن عند أهل الولايات المتحدة ، ولم يكن بين الألف جماعة من الشبان فحسب ، وانما كان بينهم جماعة كذلك من خيرة رجال ايطاليا ، وكان منهم المحامى ، والطبيب ، وأستاذ الجامعة ، والشاعر ، والفنان،وغيرهم من الرجال ذوى الكفاية فى ريعان شبابهم ولهم زوجات وأبناء كانوا فخورين بأن يروهم ذاهبين ـ وهكذا كانت رفقة غاريبالدى فى سبيل قضيته •

وكان ركوب البحر فى الليلة الخامسة من شهر مايو سنة ١٨٦٠ ، وعرف أهل جنوا جميعا ماكان حادثا ، ولكن لما كانت جنوا جزءا من مملكة بدمونت لذلك كان يستدعى الأمر أن يظهر الارتحال فى صورة مؤامرة خفية لا يسأل عنها الملك ولا كافور ، وكانت الحاجة ماسة الى سفينتين لا سفينة واحدة ، وكان على بكسيو الحصول على هاتين السفينتين بطريق الاستيلاء ؛ اذ لم يكن من الميسور الحصول عليهما بالطرق القانونية ، وبمساعدة وكيل شركة السفن التجارية استولى مع طائفة من الرجال على باخرتين صغيرتين كانتا فى رصيف الميناء ، وكان اسم احداهما « بيمونت » واسم الأخرى « لمباردو» • وبعد عوائق مثيرة للأعصاب ناشئة من اعداد البخار أبحرت السفينتان من ميناء جنوا فى الساعة الثالثة صباحا ، وكانت الخطة استحضار الرجال الألف فى قوارب تجديف ثم جذبهم الى السفينة مع صناديق البنادق والذخائر والمؤن فى الوقت الذى تتحرك فيه الباخرتان فى بطء الى ناحية الشرق •

وكان على الرجال أن يجتمعوا عند مكانين صخريين فى شواطىء جنوا الخارجية ، باستثناء خمسين رجلا منهم عند مكان اسمه كوارتو تحت المنزل الذى كان يقيم فيه غاريبالدى ، وحينما خيم الظلام خرج الرجال فى هدوء من جنوا واصطف أهل جنوا على جانبى الطريق البالغ طوله ثلاثة أميال صامتين ورءوسهم عارية فى صلاة وداع صامتة ، كان الموقف من الوقار وجلالة الشأن بحيث لا يسمح بالهتاف ولا بالتلويح بالأعلام •

وحينما وصل الرجال الى كوارتو تفرقوا فى حديقة فيلا سينولا وجلسوا على الأرض تحت النجوم اللامعة منتظرين ظهور قائدهم ، وأخيرا رأوه يهبط من المنزل الى الصخور وحوله الضباط أركان حربه، وقد خلع الى الأبد الملابس المدنية التى ارتداها السنين الطوال فى

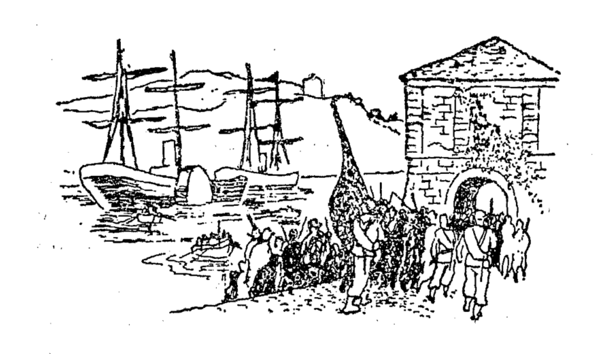


كان ملتفا فى بنق رمادى اللون وهو يتقدم الى ظهر السفينة

صبر وانتظار كمـــا خلع ســترة بدمونت الرسمية • وقد لبس غاريبالدى سراويل رمادية فضفاضة وقميصا أحمر زمه عند خصره لا يشبه القميص النصفى الذى كان يلبسه سنة ١٨٤٩ وقد لف حول عنقه منديلا حريريا مرقشا كثير الألوان ، وقد التف فى طيلسانه الرمادى الصوفى ووضع على رأسه قبعة سوداء مسدولة ، وصورته فى هذا اللباس بوجهه الأبلج النبيل الذى كان يلهم كل من رآه هى تمثل على الدوام شخصية ايطاليا لبلاده وللعالم •

وحوالى الساعة العاشرة مشى غاريبالدى من الصخرة فى كوارتو الى أول الزوارق المنتظرة وسيفه الثقيل على عاتقه ، وتبعه الضباط والرجال ــ وكانوا جمـــاعة مختلفة الأنماط للقيـــام بهذه المغامرة العجيبة ــ كان هناك جنود لا يلبسون الحلل العسكرية ، ولو أن أقلية منهم كانت تلبس القمصان الحمر وسادة ينم مظهرهم على أنهم من العلماء الدارسين ، ورجال أعمال عاقدو العزم ، وتجار ، وطلبة أجراء بعضهم غلمان يافعون ، وكانوا لا يحملون سلاحا لأن البنادق كانت معبأة فى صناديق خشبية لحملها وشحنها وكانت مما لا يمكن الاعتماد عليه لقدمها ، وقد حصلوا عليها حينما ضنت عليهم ترسانة ميلانو ببنادقها الجيدة •

واصطفت الزوارق فى اتجاه المكان الذى احتشد فيه الرجال ليركبوا الباخرتين ، ولكن التأخير عند رصيف الميناء قلب الخطط رأسا عـــلى عقب ، وطال انتظارهم قبـــل أن تظهر السفينتان ، وجلس غاريبالدى فى زورقه صامتا ونعرف ماذا كان يجول بخاطره حينذاك لأنه كتب ما يأتى : « أيتها الليلة الخامسة من شهر مايو ••• ليلة حسناء هادئة وقور ، يملأ جلالها قلوب كرام الرجال حينما يقدمون على تحرير المستبعدين • وهكذا كان الألف ؛ هؤلاء الشبان المحنكون جنودى فى حرب حرية ايطاليا ، وكنت وأنا فخور بثقتهم بى أشعر بأنى أستطيع محاولة أى شىء •• » •



الفصل الرابع عشر

نزول الألف إلى البر

كانت تباشير الصباح قد أخذت تلوح فى الأفق حينما ظهرت أخيرا السفينتان ، وبدأ التزاحم بالمناكب على نقل الرجال والأسلحة الى ظهرى السفينتين قبـــل أن يملأ ضـــوء النهار الآفاق ويقضى على المخاطرة بأسرها ، وكان كل زورق حالمـــا ينقل راكبين ويتركهم متعلقين بحبال السفينتين يعود أدراجه لحمل غيرهم ونقلهم ، ونقلت صناديق البنادق بسرعة جنونية ، وتسللت السفينتان عند شروق الشمس .

وساد الهرج ظهر السفينتين ، ولم يكن أحد واثقا من أن كل متطوع قد وجد له مكانا باحدى السفينتين ، وكان أول شيء كشفه غاريبالدي وهو على ظهر السفينة بيمونت هو تلك الحقيقة المروعة ، وهى أن الحملة قد أبحرت دون أن تحمل معها الذخيرة ، وأكد ذلك الاتصال ببيكسيو على ظهر السفينة لمباردو ، وكانت الحملة قد استأجرت بعض البحارة لنقل الذخائر فى الظلام الى الباخرتين ، فخانوا رجال الحملة وفقدت الذخيرة ولم يكن هناك سبيل للعودة للبحث عنها ، أما المال الذى جمع لرصيد المليون البندقية فكان فى أمان على ظهر احدى السفينتين ٠

وكان البحر هائجا عجاجا فى اليوم الأول من أيام الرحلة ، وأصاب دوار البحر جميع ركاب السفينتين الذين عاشوا داخل الحدود بعيدين عن الشواطىء ، ولكن غاريبالدى كان هادىء البال ، ولم يكن قط من الذين يضعون الخطط فى فرط عناية وشدة حذر ويتحرون النظام الدقيق ٠ ولم يكن يعرف على وجه التحديد عدد الرجال الذين صحبوه الا بعد أن أبحرت السفينتان ولم يقل شيئا سوى قوله : « أى جمع من الناس ! » ٠ وكان لابد من عمل نظام يحد من الفوضى التى ازدحم فيها الناس على ظهر السفينتين ، ولم تكن المؤونة قد شحنت بعد ٠

واقتضى علاج هذه المسائل وقوف السفينتين عند تلامون على شاطىء توسكانيا ، وهناك عهد غاريبالدى الى ضابط بارع اسمه تور فى الحصول على الذخيرة ، وبينما كان تور يحاول اغراء قائد حصن لاعطائه كل الذخيرة التى عنده فى مستودع الذخائر كان غاريبالدى على الشاطىء يحاول الحصول على المساعدة من السلطات المحلية ، وقد كتب هذا الاعلان وتركه ليقرأ على رجاله فى السفينتين :

« ان رسالة هذه الكتيبة ستكون قائمة على التضحية الكاملة بالنفس لتحديد شباب وطننا ٠ ولم يغر هؤلاء

الرجال الشجعان التطلع الى منصب أو انتظار مرتبة شرف أو الأمل فى مثوبة • والآن وقد حانت ساعة الجهاد مرة ثانية فان ايطاليا تراهم عائدين الى الوقوف فى الصف الأول وقد احتواهم السرور حريصين على اراقة دمائهم لأجلها ، ان هتاف الحرب الذى ردده صيادو الألب هو نفسه الهتاف الذى رن صداه منذ اثنى عشر شهرا •

ايطاليا وفيكتور عمانويل

وهذا الهتاف المنبعث من شفاهكم سيوقع الرعب فى قلوب أعداء ايطاليا » •

وهكذا أوضح غاريبالدى لمتزينى والجمهوريين أين يتجه ولاؤه ، وبعد أن استمع الألف ـــ ولأجل الدقة تقول ان عدد رجال السفينتين بلغ ١٠٨٩ ـ الى رسالة قائدهم فى اعتزاز وفخر اصطفوا على الشاطىء ، وأجرى بعض النظام ، وقسمت الرجال الى ثمان فصائل ، وكانت تكون نصف الكتيبة الأولى تحت قيادة نينو بيكسيو ، والنصف الثانى من الكتيبة كان تحت قيادة صقلى اسمه كارينى ، وقد ترك فى جنوا جياكومو مديتشى بطل الفاشـــيللو فى حصار روما لجمع المتطوعين وتنظيمهم واعدادهم ليرسلوا امدادا فيما بعد ، وكان بين الألف مينوتى ابن غاريبالدى ، وكان حينذاك شابا فى التاســعة عشرة من عمره وسمح بقضاء يومين للحصول على الذخيرة الذى ثبت بعد ذلك أنها غير كافية وقديمة الطراز ، ولتزويد السفينتين بالفحم ولشراء المؤونة وشـــحنها ولتدريب الرجـــال ، واذا وازنا بين فكرتنا الحديثة عن الاستعداد اللازم لعمل حملة عسكرية وبين هذا الاعداد الذى تم منذ أقل من قرن فى سرعة وعدم استيفاء وتعرض للأخطار الشديدة بدا لنا أن هذا الاستعداد لا يمكن تصديقه ، وقد كانت المدفعية مكونة من خمس مدافع قديمة مختلفة بطل استعمالها وقد استولت عليها الحملة

فى تلامون ، وكان الرجال يسحبونها على عربات خشبية صنعت على عجل وبغير اتقان ، وكانوا يطلقونها من الحين الى الحين حينما كانوا يريدون أن يدخلوا فى روع الناس أن معهم مدفعية قوية فى المؤخرة٠

وفى اليـــوم التاسع من شهر مايو تم الاســـتعداد وأبحرت السفينتان الى الناحيـــة المقصودة ، وكان غاريبالدى ومعـــه قرابة فصيلتين من الرجال بالسفينة بيمونت الصغرى والأسرع ، وكان نينوبيكسيو على رأس الفصـــائل الست الباقية على ظهر السفينة لمباردو ، وقد أدهش رجاله ولكن أدخل على نفوسهم السرور حينما قال فى خطبة له : « انى صاحب الأمر هنا ٠ وانى كل شىء ، فأنا قيصر ، وأنا السلطان ، وأنا البابا ، أنا نينو بيكسيو ، ويلزم أن أطاع كما يطاع الله » ٠

واذا كانت هذه الكلمات تظهر بيكسيو فى صورة المختال الفخور فان الحملة ماكان يقدر لها النجاح لو أن هذا الرجل كان كذلك ، لقد كان أشجع الشجعان ، كان رجلا مرهوب الجانب ، صلب المكسر ، له غضبات ثائرة لا تطاق ، وهـــو مع ذلك يحتفظ باحترام رجاله له لقيادته الفائقة وشـــجاعته التى لا نظير لهـــا ، وكان يســـمى « الألف الثانية » ٠

وكان هدف غاريبالدى الاســـتيلاء على بالرمو عاصمة صقلية الواقعة فى الشمال على شاطىء الجزيرة الكبيرة الغربى ، وفى غربى بالرمو ثغور كبيرة جيدة ، وكل منها يصلح مكانا لنزول الحملة ،ولكن غاريبالدى لم يســـتطع أن يبت أيها أصلح حتى اقترب منها ، لأن شواطىء صقلية كانت تحرسها سفن ملك نابولى ، ولا يمكن النزول الى البر الا بالافلات من رقابتها ٠

قصمم على الانطلاق الى مارسالا ـ وهى الثغر الواقع فى أقصى شاطىء صقلية الغربى والذى يشحن منه نبيذ مارسالا المشهور ـ ولما اقتربت السفينة بيمونت من الميناء رأى غاريبالدى سفينتين حربيتين راسيتين على الشاطىء ، وأمسك بنظارته وأجال النظر فيهما فاحصا مدققا فاستحال خوفه فرحا واستبشارا حينما رأى أن السفينتين كانتا بريطانيتين ، ولم يكد يصدق عينيه حتى اقتربت منـــه سفينتان شراعيتان صغيرتان كان من بهما من البحارة يتحدثون باللغة الانجليزية مما جعله يقطع الشك باليقين ، وكانت هنـــاك ثلاث شركات ملاحة بريطانية فى مارسالا لشحن النبيذ ، وقد لجأت الى حكومتها لحمايتها حينما حدثت الثورة فى صقلية وأخذ حاكمها التابع لحكومة نابولى يصادر الأسلحة الموجودة بالجزيرة ٠

وكانت سفن حـكومة نابولى الموكلة بالحراسة فى تلك المياه قد اتجهت الى الجنوب فى وقت وصول حمـــلة غاريبالدى ، ولذلك أمر بالاندفاع السريع الى الميناء ، وكان فى مارســـالا حاجز أمواج فى جانب الامتداد الجنوبى لمينائها الضحل ، وكان لابد من أن تمر به السفينتان لتتسللا الى داخل الحاجز ، واستطاعت السفينة بيمونت أن تمر بســـلام الى الداخل ، ولـكن السفينة لمباردو الأكبر حجما ارتطمت فى مدخل الميناء مما جعل نزول ركابها أشق وأكثر تعرضا للخطر ٠

وكان ذلك بين منتصف الساعة الثانية وابتداء الساعة الثالثة من مساء اليوم الحادى عشر من شهر مايو ، ولم يستطع بعض الانجليز الجالسين على أحد المقاهى الواقعة على الشاطىء تصديق عيونهم وهم يرون رجالا مسلحين بعضهم يرتدى القميص الأحمر وقد شرعوا فى النزول من البيمونت الى القوارب الصغيرة ، وينزلون منها الى البر فى الطرف الخارجى للحاجز الضيق ، ولم يكد يبدأ هذا النزول حتى

كانت سفن الحراسة الحربية التابعة لحكومة نابولى الموكلة بحراسة الشـــاطىء الجنوبى قد شعرت بما هـــو حادث وأسرعت عائدة الى مارســـالا ، ووصلت باخرة نابولى « سترومبولى » حينما كان رجال السفينة بيمونت قد نزلوا جميعا الى الشاطىء ، ولكن ثلاثة أرباع ركاب السفينة لمباردو كانوا لا يزالون على ظهر الباخرة معتمدين على مراكب الصيد المحلية التى أرغمت بالرشى أو بالتهديد باطلاق الرصاص على انزال رجالها الى الشاطىء ٠

وكان ربان السفينة سترومبولى عنده فرصة ليطلق النار على السفينة من جميع نواحيها ويقتل رجالها ويجعل نزولهم الى البر غير ممكن ، ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك تمهل وتلبث ولم يعرف على وجه التحديد ماحمله على هذا السلوك سوى أن السفينتين البريطانيتين الراسيتين على مقربة منه ربما جعلتاه يتردد فى اطلاق النار ، ولما صمم أخيرا على اطلاق النار كانت الفرصة قد أفلتت ، وفضلا عن ذلك فان طريقة اطلاق المدافع كانت من الاختلال بحيث تمكن الرجال الباقون من النزول من الباخرة لمباردو الى البر فى ســـلام وخفة حركة واحكام نظام بالغين حد الادهاش ، كما روى بعض الانجليز الذين كانوا شهود عيان وأحثوا السير عبر الحاجز وفوقه الى مارسالا نفسها ، وأنزل كل شىء الى البر حتى المدافع الخمسة ، وظل غاريبالدى مبتسما فوق الحاجز متجاهلا النيران غير المحـــكمة التى يطلقها جنود مملكة نابولى ، وأمر بفتح الثقوب فى السفينتين لتمتلئا بالماء وتغرقا ، ولكن العدو بادر الى سحب احداهما ، فاستدار حينذاك غاريبالدى وتبع جنوده داخل الأسوار ٠

وانضمت اليه المدينة بدون مقاومة ، وحقيقة أنه لم يجد أى مظهر من مظاهر ثورة ناشطة عاملة ولكنه كذلك لم يجد أى جندى من جنود نابولى ، وكانت حكومة البوربون بغبائها المعتاد قد أمرت

قواتها بالانسحاب الى بالرمو بعد تجريدها مارسالا من السلاح بالرغم أن ايطاليا جميعها كانت تعلم فى ذلك الوقت أن غاريبالدى قد أبحر من جنوا ، واجتمع مجلس مدينة مارسالا وأقر اصدار بيان مضمونه أن البوربون قد أصبحوا لا شأن لهم فى حكم مارسالا ، وأن غاريبالدى هو القائم بالأمر فيها ــ الديكتاتور ــ باسم الملك فيكتور عمانويل ٠

ولفظة ديكتاتور أصبح لها معنى كريه فى الأوقات الحديثة ، ولذلك يحسن أن نبين كيف استعملت بايطاليا فى سنة ١٨٦٠ ، انها كانت تعنى الحاكم العسكرى لاقليم تم تحريره ، وهو يقوم مؤقتا بالحكم حتى يسلمه الى الحكومة القومية ٠

ولم يضع غاريبالدى يوما واحدا منذ وصوله للبدء فى السير الى بالرمو ، وكان الطريق اليها يتجه شرقا عبر أميال من الأراضى المستوية الجرداء ثم يخترق مزارع وضياعا قائمة على تلال حتى جبال صقلية القحلاء ، ولم يكن هناك مكان يمكن الاحتماء به ولا غابات يستظل بأشجارها ، وداخل صقلية فى منتصف شهر مايو يشتعل اشتعالا بحرارة المنطقة الاستوائية ، وبدأ الجيش الصغير مسيره بروح عالية ، وكان غاريبالدى وبيكسيو وعدد قليل من الضباط على ظهور الجياد التى حصلوا عليها فى مارسالا ، أما سائر رجال الجيش فكانوا يسيرون على أقدامهم ، وبقى بحارة السفينتين مع الألف ، وتحولوا الى المدفعية وتولوا أمر المدافع القديمة الكسيحة ٠

وقليل من هؤلاء كانوا متعودين على مثل هذا السير العنيف فى حرارة شمس الجنوب المتوقدة ، ولكن غاريبالدى سرعان ماترجل عن جواده ليضرب فى الأرض مثلهم ، وكان يتحدث مع الجميع فى بشر وطلاقة،وكان الرجال يريدون أن يعبوا من الماء عند مواقف الاستراحة أكثر مما يكون مناسبا لسلامة صحتهم ولذلك كان يقف بيكسيو الى جانب الينابيع شاهرا سلاحه ٠

وفى مساء هذا اليوم أقاموا أول معسكر لهم ، وهناك انضم اليهم جماعة من المزارعين الأقوياء الحســـان راكبين خيولهم ومزودين بأسلحة جيدة ، وكان هؤلاء أول من رأوا الصقليين الحقيقيين الثائرين، وقد قوبلوا بالترحيب والتهليل ، وكانت هذه الجماعات من الثائرين على حـــكم البوربون تسمى « الفرق » وكان رجال جيش « الألف » ينتظرون منهم شجاعة وجرأة أكثر مما أظهرها غالبيتهم رغم مظهرهم الحربى ، ولكنهم أظهروا أن سكان صقلية كانوا ينحازون الى صفوف غاريبالدى ، وكان هذا هو المهم فى النهاية ٠



الفصل الخامس عشر

معركة كالاتافيمي

انتشر خبر نزول غاريبالدى بجزيرة صقلية فى جميع أنحاء ايطاليا من الشمال الطرب الى حكام نابولى الذين استطارهم الخبر ، وكان الحرس فى بالرمو مكونا من حوالى ٢٥٠٠٠ من جنود الجيش النظامى ، ولكن الحاكم المحلى بدلا من أن يستخف بالقوة الصغيرة التى كانت مع غاريبالدى اضطربت أعصابه وأرسل الى نابولى يطلب

ارسال المدد • ومن أول يوم أظهر هـــو وأنصاره من رجال حكومة البوربون وجيشه سوء حكمهم على الأشياء ، وخطأ تقديرهم للأمور ، وضعف الروح المعنوية ، وفقدان النظام ، وهى جميعها النتائج المألوفة للطغيان والفساد •

وحاول رجال نابولى فى بادىء الأمر ايقاع غاريبالدى فى الشرك الذى أفلت منه ، وذلك بانزال قوة فى مارسالا عند مؤخرته ، ولكن قائدهم لاندى نبذ هـــذه الفكرة مؤثرا فكرة أخرى غير مقبولة وهى التقدم لملاقاة غاريبالدى ليمنع تهديده لمدينة بالرمو ، وبدأ لاندى يتجه الى مدينة كالاتافيمى الواقعة فى غرب بالرمو فى منطقة جبلية وعرة ومعه ثلاثة آلاف من الجنود المنتقاة تؤيدها فرقة من الفرسان والمدفعيـــة ، ولم يكن لغاريبالدى مندوحة عن لقاء هذه القوات لأنها كانت مرابطة فى الطريق المفضى الى بالرمو ، وكان هو يعتزم الاستيلاء على المدينة •

وفى صباح الخامس‌عشر من مايو سمع النابليونيون أن غاريبالدى مقبل عليهم ، ولكن قائدهم بدلا من أن يقوم بهجوم عليه لبث بالمدينة وأرسل فصائل من الجند أمرها ــ حسب كلماته ــ « بالتجوال خلال الريف لتحدث تأثيرا معنويا يرهب العـــدو » ويندر أن نجد فى السجلات الحربية أمرا عسكريا أدل على العجز والسخف من هذا الأمر.

وفى أثناء ذلك فى الساعة الثالثة من صباح اليوم نفسه بقرية ساليمى التى نام بها الألف أيقظهم من نومهم النفير الحاد الذى نفخ فيه البروجى الوحيد الذى سبق له أن قام بهذا الدور فى الســـنة الســـالفة عند الانتصـــار فى كومو ، واجتمعوا فى خارج ساليمى ، ومعهم فصائل عدة انضمت اليهم ، وخرج ســـكان القرية جميعهم لتحيتهم والهتاف لهم وتقدم الطابور الصغير ورجاله يتغنون نشيد

مانارا للرماة الذى يعيـــد الى ذاكرتهم أيام الدفاع عن روما الحافلة بمواقف البطولة ٠

وكان غاريبالدى نفســه جذلان مشرق النفس ، وعرف رجال الحملة جميعهم أن هذا اليوم هـــو اليوم الأول من أيام المعركة ، ولما تسامت الشمس فى الأفق وقفوا قليلا فى آخر قرية قبل الوصول الى كالاتافيمى ، وأحضر الكثيرون برتقالا وليمونا وحملوه فى جيوبهم لكى يرفهوا به عن أنفسهم فى يوم كانت ظواهره تدل على أنه سيكون شديد القيظ ٠

ولما برحوا هذه القرية تسلقوا مقدمة تل منحدر مشرف على واد ضيق قد انساب فيه جدول ، وجلس غاريبالدى عند رأس التل ومعه أركان حربه يراقب جموع النابوليين عبر الوادى الضيق على تل آخر مرتفع ، وهم ينفذون الأوامر الصادرة اليهم بالتقدم فى الريف ، وكان يقودهم ضابط برتبة عميد اسمه سفورزا ، وكان أصح ادراكا من القائد لاندى الذى ظل قابعا وراءهم فى كالاتافيمى ، وألقى سفورزا من ناحيته نظرة متمعنة على الغزاة عبر الوادى الضيق ، وبدلا من أن يرى جيوشا متماسكة قوية يرتدى رجالها حللا بدمونتية كما كان يتوقع رأى جماعة من الرجال فى ملابس مدنية رثة ، وبعضهم كان يرتدى القمصـــــان الحمر مما جعل سفورزا يعتقد أنهم من المجرمين الهاربين ، فصمم على أن « يرد هؤلاء الأوباش الأوغاد الى ساليمى » كما تروى لنا السجلات ٠

وكانت الشمس فى كبد السماء ، وتأهب القائدان للهجوم ، وكان غاريبالدى جالسا على صخرة وعلم ايطاليا وبدمونت ذو الألوان الثلاثة الأحمر والأبيض والأخضر يخفق الى جانبه ، وقد اصطفت قواته فى سفح التل أمامه ومعها جيش من الفرسان حملة الأسلحة النارية

(الكاربينات) والرماة الجنوبين ، الذين انضموا الى الألف فى الصف الأول ، ووقفت جنود نابولى الحسنة التسليح فى كساويهم اللامعة الأنيقة عبر الوادى فى ناحية التل المواجهة الأكثر انحدارا .

وفجأة انطلقت أبواق العدو مؤذنة بالتقدم ، وبدأ النابوليون يتحركون ، وأمر غاريبالدى فتى البروجى أن ينفخ فى بوق كومو ، فجثم رجاله وأعصابهم مشدودة ، وانتظروا اقتراب العدو ، وكانت طلائعه تخوض غمار الجدول ، وأخذت تطلق نيرانها حينما وصلت الى مدخل مرمى النيران ، وبدأ الجنويون يطلقون نيرانهم ، ولما سقط بعض الأعداء وثب الألف وثبة واحـــدة قبل أن يصدر اليهم الأمر بدقيقة واحدة وانطلقوا الى سفح التل مصوبين السونكى .

واضطربت طليعة النابوليين وظهر الخلل فى صفوفهم ، وارتدوا هاربين الى التل الذى احتشد فيـــه رجالهم ، وبدأ دور الألف فى الهجوم ، فانطلقوا الى الأمام بدون توقف والعدو يتراجـــع أمامهم ، وانضم العدو الى الرديف المرابط فوق قمة التل وهناك ثبتوا أقدامهم، واستمرت المعركة ساعتين ، لم ينقطع خلالهما هجمات الألف الثائرة على جيش يفوقهم عددا الى حد كبير .

كان عدد جنود النابوليين أكثر من ثلاثة أضعاف الألف ، وكل جندى كان يحمل بندقية جيدة ، وكانت البنادق القديمة التى يحملها رجال غاريبالدى تعد من الأسلحة البدائية بالقياس اليها ، وكان عند العدو عدد وافر من الذخيرة فى حين أن الغاريبالديين لم يكن معهم سوى عدد قليل من الذخائر الى حد أن بعضهم لم يكن معه سوى عشر طلقات ، ولكن الألف كان عندهم ماينقص العدو وهـــو السونكى ، والإقدام ، وحسن الادراك ، وخفة الحركة .



اننا جئنا هنا لنصنع ايطاليا أو نموت

ووقف الجنـــود النابوليون الحسنو التدريب فى نظام .يطلقون النيران دفعة واحدة كلما تلقوا الأمر بذلك ، أما الغاريبالديون فكانوا يحاربون أفرادا ، وكل فرد منهم يعتمد على تفكيره الخاص ، ولكن الجميع كانت تلهمهم القيادة الباهرة ، وكانوا يحاربون فى صفوف متباعدة على طريقة الأمريكيين فى القتال ، ويقومون بهجمات فجائية من مكان حريز الى مكان آخر بعده ولا يطلقون النيران الا من مرمى قريب ، ويستعملون الحراب حينما يدانون العدو •

ولكن التقدم كان شاقا ، فقد قسم الفلاحون التل المنحدر الى مدرجات ضيقة تنمو بها الحبوب ، وفى بعض الأحيان كان ذلك يجدى على الجنود اذ يتيح لهم فرصة للتجمع والتقاط الأنفاس ، ولكنه فى الوقت نفسه جعلهم هدفا لجنود نابولى يطلقون عليه النار ، واستمر الهجوم فى هجمات مركزة يقودها ضباط كانوا يعرضون أنفسهم بغير اكتراث لنيران العدو ، وكان بيكسيو على جواده الأبيض القائد الذى لا يستقر له قرار والمشرف على جميع أطراف المعركة وكان ينطلق من معمعان القتال الى غاريبالدى متوسلا اليه أن يظل بعيدا عن الخطر •

ولكنه لما رأى رجاله يصابون لم يستطع البقاء فى مكانه وأخذ ينزل من التل وجرد سيفه وقاد الهجمات على تل العدو ، وتجمع حوله الضباط أركان الحرب ، وسقط اثنان منهم قتيلين اذ أصابهما رصاص البنادق الذى كان يمكن أن يقتل القائد ، وجرح ابنه مينوتى مع آخرين كثيرين ، وتحرج موقف الألف ، وكانت الأمداد ماتنفك ترد الى الأعداء لابقاء صفوفهم قوية متماسكة ، فى حين كانت كل هجمة الى الأمام يقـــوم بها رجال غاريبالدى تنقص عددهم وتوهن قوتهم ، ورأى كل ضابط مجرب أن الموقف يبعث على اليأس ، ولكن لم يجترىء أحد أن يقول ذلك للقائد ، ولم يجد بيكسيو الشجاع البهمة مناصا من أن يصارح فى النهاية القائد قائلا :

« أيها القائد ، أخشى أن يكون تراجعنا ضربة لازب » فأجابه غاريبالدى فى هدوء واطمئنان : « اننا جئنا هنا لنصنع ايطاليا أو نموت » •

ولم يكن غاريبالدى من غواة التعبيرات المسرحية كهذه الكلمة ، وانما قال هذه الكلمات التاريخية لأنه كان يعبر بها تعبيرا دقيقا عما يعنيه ، وكان يعلم أن النكوص فى هذه الأزمة سيكون أبلغ ضررا بقضية ايطاليا من ابادة الفرقة بأسرها فى الميدان •

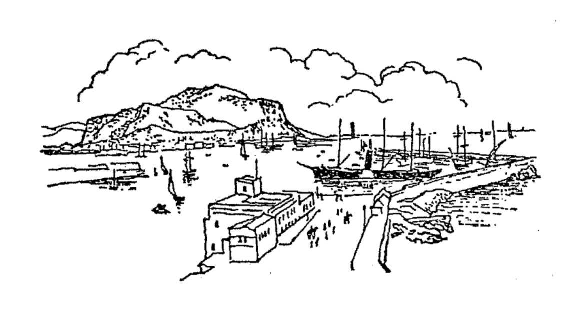
وقاد المعركة المتعثرة هذا الرجل النصف الذى فقد الكثير من خفة الحركة وأخذ يجاهد فى التقدم على رأس جيشه من الشبان المكدودين ، وبلغوا المدرج الأخير المصاقب لقمة التل ، وتوقفوا جاثمين ليستريحوا أو يستعدوا للهجمة الأخيرة التى قد يكون فيها القضاء عليهم جميعا ، وأصدر قائد الأعداء الأمر بالهجوم على الغاريبالديين واكتساحهم وازالتهم من مجثمهم ، ولكن النابوليين تجاهلوا الأمر وامتنعوا عن الهجوم بالرغم من أنهم ظلوا واقفين بغير حركة ومتابعين اطلاق النيران ، ولكن نيرانهم كانت حينذاك جد عالية وكانت تمر فوق رءوس المهاجمين ، وأخذ بعض النابوليين يقذفون الأحجار والصخور ، وأصابت احداها غاريبالدى فى ظهره وهو ينحنى الى الأمام فوثب وعيناه متوقدتان وصاح برجاله قائلا : « تقدموا • انهم يرموننا بالأحجار • لقد نفدت ذخيرتهم » •

ووثب الى الأمام على حرف التل وهو يلوح بسيفه،واندفع رجاله وراءه وحرابهم مشهورة ، وحدث صدام فى قمة التل شديد الوطأة بالغ الشدة ، ولم يكن النابوليون قد استنفدوا ذخيرتهم بعد ولكنهم تخاذلوا وفت فى عضدهم ازاء رعاع غاريبالدى وأوباشه الذين لم يفل لهم عزم ولم تنثن لهم همة •

ولما انتهت نوبة الجنون وهدأ سعار المعركة رأى الغاريبالديون صفوف العدو المحطمة المنهزمة وهى متدفقة على الجانب الآخر من التل لائذة بأذيال الفرار فى ذعر ومجللة بعار الهزيمة ، وتجمع رجال غاريبالدى حول قائدهم هاتفين صائحين ، ثم ارتموا من الاعياء على الأرض التى لفحتها حرارة الشمس •

وقتل من الألف فى هذا اليوم ثلاثون وجرح مائة جروحا بالغة، واحتمل الجرحى آلاما شديدة ، وذلك لأن كثيرا من الأطباء وطلبة الطب الذين انضموا الى الألف جاءوا بوصفهم جنودا مقاتلة ، وبعد يوم واحد من العناية بالجرحى كان على الجيش أن يتقدم الى بالرمو تاركا الجرحى فى أيدى الصقليين غير البارعين •

وضعفت روح النابوليين المنهزمين المعنوية ، فارتدوا هاربين الى كالاتافيمى ، وأخلوها فى منتصف الليل ، وبعد أربع وعشرين ساعة عادوا الى بالرمو وأذاعوا قصة قائد حرب العصابات الرهيب ورجاله المتوحشين ، وانتشرت هـذه الاشاعات فى نواحى الريف انتشار النار فى الهشيم وأذاعتها الفصائل كذلك لأنهم لم يكن لهم نفع يذكر فى المعركة فقد كانوا غير مهيئين لاستعمال السلاح الأبيض كما كان النابوليون غير قادرين على الثبات له ، ولكنهم كانوا من الشعب ، وفى كل مدينة بعد أخرى كانت تحتشد الجموع للترحيب بمخلصيهم •



الفصل السادس عشر

الانتصار في صقلية

بعد النزول فى مارسالا بستة أيام تقدم الألف منتصرين من كالاتافيمى فى الطريق الى بالرمو وهى على مسافة خمسة وثلاثين ميلا، وكان شكلهم عجيبا وقد امتلأت نفوسهم ثقة واعتزازا ، ولكن منظرهم لم يكن يدل على شيء من ذلك ، فقد كانت ملابسهم المدنية مزقا ، وأحذيتهم خلقة ، وكان كثيرون منهم يظلعون فى سيرهم أو يضعون الأربطة حول رءوسهم أو أذرعهم ، وكانت المتاعب الكبرى لا تزال أمامهم ، وقبل أن ينتهى ذلك كله كانت أهوال المعركة والتعرض للعواصف والشمس الحارقة قد أحالت منظرهم الى صورة لمة من الصعاليك فى الأسمال البالية ، وقد نطق بيكسيو بلسان الجميع حين قال فى ذلك الصباح : « فى أقرب وقت سنكون اما فى بالرمو واما فى الجحيم » .

وسرعان ماترك غاريبالدى الطريق العـــام وقاد رجـاله فى طرقات ضيقة وممرات فى مخارم الجبال كانت هى الطريق الوحيد الى هدفهم ، وبالرمو واقعة على شاطىء صقلية الشمالى وبها ميناء جميل ملآن بالسفن وحركة الشحن ، وهى محاطة بالجبال من نواحى البر ، وكان غاريبالدى يعلم أن عدد حراسها من جيوش البوربون يناهز عشرين ألفا ، ويمكنهم أن يتلقوا المدد بحرا من نابولى .

وكان الهجوم المباشر على المدينة من المستحيلات ، وكان الأمل الوحيد هو تخلل الجبال ، وذلك باخفاء أعداد قليلة من الغاريبالديين ثم الهجوم على المدينة من بعض الجهات القليلة الحراس اذا تيسر ذلك ، ومتى دخل غاريبالدى المدينة كان اعتماده على قيام الأهالى بالثورة وانضمامهم اليه فى القتال لقلب حكومة البوربون البغيضة .

ووضـــع غاريبالدى فى مكانين بعيدين فى الجبال جماعة من الصقليين الوطنيين المقاديم ، وجعل كل واحـــد من هذه الجماعة على رأس عدد من الفصائل ، ولم تكن هـــذه الفصائل من الجنود التى يمكن الاعتماد عليها أو الاطمئنان اليها فى القتال ، ولكنه كان يستطيع الاعتماد عليها وعلى قادتها فى تعرف الأخبار وجمع المعلومات ، وكان غاريبالدى يعمل على مقربة من هذه الفصائل ، وبينما كان غاريبالدى ذاهبا للاجتماع بهم فى مدينة واقعة فى جنوب غربى بالرمو هاجمت الصقليين قوة مكونة من ثلاثة آلاف من جنود نابولى وهزمتهم وتحولت قاصدة غاريبالدى وكان عليه أن يغير خططه وأن يكون ذلك فى التو واللحظة .

ورأى أن يحاول الهجوم على بالرمو من الجنوب الشرقى بدلا من مهاجمتها من الجنوب الغربى ، ولكى يقوم بهذا الهجوم كان عليه أن يخدع العدو ويقوم بحركة زحف شاقة فى الجنوب عبر منطقة متأبدة

عارية المحاسر ، وقام الغاريبالديون بهذه الحركة فى هـــدأة الليل ، وتركوا فى المكان الذى بدءوا منه سيرهم نيران المعسكر مشتعلة ، وقد خدعت العدو المقتفى لأثارهم وضللته وجعلته يتجه الى جوف الجزيرة ظنا منه أن غاريبالدى قد نكص على عقبيه اليه ٠

ولأجل الامعان فى تضليل العدو وزيادة تغفله أرسل غاريبالدى سرية مكونة من مائتين من رجاله ومعهم المدفعية المكونة من المدافع الخمسة القديمة فى اتجاه بعيد عن زحفه ، وهذا التقهقر الزائف شغل العدو فى وقت قيام غاريبالدى بعمل دائرة متسعة خلال أشد الجهات الجبلية صلابة ليصل الى الممر المسمى جبلزوسا ، وهو المنفذ الوحيد الى شاطىء البحر الجميل المحفوف بالكروم وبساتين البرتقال حيث تقوم مدينة بالرمو ، وقد اقتضى هذا الزحف الشاق الألف مجهود عشرة أيام اشتبكوا خلالها فى مناوشات مع جماعات من طلائع العدو٠

وفى اليـــوم السادس بعد العشرين من شـــهر مايو وقف غاريبالدى ازاء الممر لينعم رجاله بالقليل من الراحة وليتلقى المعلومات عن الفرص السوانح لاقتحام المدينة ، وقيل له ان أحد الأبواب فى جنوب شرقى المدينة أقل حرسا من سائر الأمكنة الأخرى التى كانت محصنة تحصينا منيعا ، وعلم كذلك أن بين السفن الكثيرة الراسية فى ميناء بالرمو سفينتين حربيتين بريطانيتين وسفينة أخرى أمريكية، وركب ضابطان انجليزيان عربة ليقدما لغاريبالدى تحية الاحترام ، كما وفد عليه كذلك أمريكيان من الهنود الحمر ، وأعطاه أحد الضابطين الأمريكيين مسدسا حمله معه فى معركة اليـــوم التالى ، ويمكن أن نتصور عواطف هؤلاء البحارة الانجليز والأمريكيين الذين عنوا عناية كبيرة بأن يلتزموا الحياد التام فى أثناء قيام المعركة لأجل الاستيلاء على بالرمو ٠

وفى خلال ليلة ٢٦ من مايو تسلل الألف ـ الذين كان عددهم الحقيقى قرابة سبعمائة وخمسين جنديا ـ خلال المنحدر المؤدى من الممر الى الجسر الأول من الجسرين الممتدين خارج مدخل المدينة الذى لم يكن هناك بد من اختراقه ، وهنا وقع غاريبالدى فى خطأ من أخطائه القليلة فى الحكم والتقدير ، وذلك بخضوعه لرجاء أعضاء الفرقة الصقلية أن يتقدموا الجيش ويدخلوا المدينة فى الطليعة ، ولكنهم حينما صبت عليهم النيران القاتلة عند الجسر الأول تبدد جمعهم ولاذوا بالفرار تاركين الألف مستهدفين خلفهم للنيران ٠

فسحب غاريبالدى سيفه واستحث جواده على التقدم فى الطليعة وصاح برجاله : « الى الأمام ٠٠ الى الأمام ٠٠ الى داخل المدينة » وكانت جنود فرقة الفرسان الجنويين حملة الأسلحة النارية وفصيلتان من فرقة بيكسيو حملة الحراب هم الذين انقضوا على النابوليين عند الجسر وأبادوهم ، واستولوا على الجسر الثانى بالطريقة نفسها ، وبقى أمامهم مسافة تبلغ الميل من طرق الضواحى انطلق فيها الألف فى غير نظام متجاهلين نيران العدو حتى إنتهوا الى حاجز عال من أحجار تمهيد الطرق اقامة النابوليون ليسدوا الطريق ٠

وأهوى الغاريبالديون بأيديهم العارية علىالحاجز ولم يألوا جهدا فى هـــدمه وتدميره ونيران العدو مصوبة نحوهم مؤيدة بمدفعين ، وسقط بعض خيارهم قتيلا وهم دائبون على تحطيم الحاجز ، وتجاهل بيكسيو رصاصة فى صدره وهو يقود رجاله كعادته ، وأخيرا سقط الحاجز وكان أول من وثب فوق أنقاضه ودخل المدينة أحد الشبان الشجعان القادمين من برجامو ، وفسحوا مكانا ليمر منه غاريبالدى ممتطيا جواده ، وهو مازال يصيح قائلا : « الى الأمام ٠٠ الى قلب المدينة » ٠ وانطلق وراء الألف الى الشارع ٠

ولم يتوقفوا عن التقدم حتى بلغوا ميدانا صغيرا اسمه « السوق القديم » وهو فى وسط حى شعبى من أحياء بالرمو المزدحمة ، وكانت الساعة الرابعة من صباح يوم ٢٧ من مايو ، وبينما كان غاريبالدى جالسا فوق ظهر جواده يصدر الأوامر الى رجاله تجمع حوله ألوف من أهل المدينة وقد استطارهم السرور وهم يصيحون ويتدافعون بالمناكب ويتسابقون متنافسين الى لمس القائد أو تقبيل يده ، وقد أقر صلاتهم للشكر بمعانقة بيكسيو الذى كاد يكون فى حالة اغماء من الألم وفقد الدم بعد أن انتزع الرصاصة بيده من صدره ٠

وعملا بأمر غاريبالدى تفرق الألف الى جماعات صغيرة لا تتجاوز الجماعة اثنى عشر رجلا،وانتشروا فى شوارع المدينة الكثيرة وسككها، وصاروا قادة للسكان الثائرين،وانضمت الى المعركة الفصائل الصقلية التى أخجلتها الهزيمة ، وقد استطاعت أن تثبت بالممارسة شيئا فشيئا أنها قادرة على الثبات لنيران العدو وأن تقاتل بحذر ويقظة ٠

وانتزع الناس من الطرق الأحجار التى رصفت بها وأقاموا منها حواجز فى كل ممر له أهمية حربية وامتلأت المدينة بأمثال هذه الحواجز ، وقاد الرجال الشجعان ذوو العقول الراجحة القادمون من الشمال أهل المدينة فى الحرب الشعواء التى استعملت فيها السكاكين والحراب والسيوف ، وكان النصر متوقفا على قدرة هؤلاء الشماليين على المبادأة ٠

واتخذ غاريبالدى مكان قيادته فوق درجات غرفة المدينة فى وسط أحد الميادين الرئيسية ، وذلك بعد أن فك سرج جواده بيديه ، ووالى الجلوس هناك ثلاثة أيام والحرب دائرة الأرجاء فى المدينة ، وكان يتلقى التقارير التى يحضرها له العداءون ويصدر الأوامر غير ملق باله الى الرصاص والقنابل التى كان لها حوله صفير وأزيز قبل

سقوطها فى الميدان متباعدة عن الدرجات التى جلس فوقها ، واعتقد أهل بالرمو الذين كانوا بطبيعتهم ميالين الى تصـــديق الخرافات أن غاريبالدى موقى من الرصاص والقنابل بمعجزة ، وظنوا أن السوط الذى كان يحمله فى يده وهو راكب جواده ويديره تميمة تمنع عنه الرصاص ٠

وبعد دخوله المدينة بثمان ساعات صارت المدينة جميعها فى يد الثائرين ماعدا بعض الأماكن الهامة من الناحية الحربية ؛ مثل قصر الحاكم والكاتدرائية ، فقد دافعت عنهما قوة كبيرة غير عادية من قوات جيش نابولى ، ودارت حولهما رحى حرب حامية انتهت بمعركة لأجل الاستيلاء على الكاتدرائية انتصرت فيها فئة قليلة من رجال برجامو فى اليوم الأخير ، وفى أثناء ذلك كانت السفن الحربية النابولية فى الميناء تضرب المدينة بالقنابل ضربا دراكا لا ونية فيه ، واستنهض القواد الشجعان من رجال الألف عزيمة أهالى المدينة الثائرين فصدقوا القتال حتى استولوا على كل شبر فى المدينة بعد ثلاثة أيام ٠

وطلب القائد البوربونى هدنة ، واتفق على عقد اجتماع لوقف القتال مؤقتا بين القائد البوربونى وغاريبالدى فى مكان محايد على ظهر احدى السفن الحربية البريطانية ، وظل غاريبالدى سيد الموقف برغم أن حالته الحقيقية كانت حرجة،فقد كان الذين يستطيعون القتال من رجاله لا يزيدون سوى زيادة قليلة عن نصف الألف ، وقد نفدت ذخائرهم على وجه التقريب ، وكان لا يمكن الاعتماد على الصقليين فى القيام بالواجبات الحربية النظامية أو فى استكمال عـــدد المقاتلة ، وشرع رجال الفصائل فى العودة الى قراهم ، وأخفى غاريبالدى ذلك كله وتظاهر بالقـــوة عن طريق الهدنة الأولى ، ثم الهدنة الثانية ، والهدنة الأخيرة ٠

وبموجب شروطها كان على العشرين ألفا من جنـــود نابولى أن يغادروا بالرمو الى نابولى بين يوم ٧ من يونيو واليـــوم الثامن عشر منـــه ، وقد كسب غاريبالدى أكثر من نصف صقلية بما فيـــه العاصمة ، ولـكن كان عليـه أن يحكم قبضته عليهما ، وأن يغزو باقى مملكة نابولى ، وقد نفست عنه كربته فى أثناء رحيل جيوش العدو بوصول سفينة من جنوا مشحونة بالأسلحة والذخيرة ، وفى اليوم الثامن عشر من شهر يونيو نزل الى البر على مقربة من بالرمو جياكومو مديتشى الذى أبلى خير بلاء فى الدفاع عن الفاشيللو فى روما على رأس ألفين وخمسمائة جندى حسنى التسلح .

وهكذا انتهت مغامرة الألف ، فهذه الكتيبة القليلة من الرجال الذين وهبوا حياتهم لتحقيق غاية نبيلة تحت قيادة قائد من نوادر قادة الحرية الذين عرفتهم الانسانية ومن أقدرهم على أن يلهم رجاله ويسمو بروحهم المعنوية ، وقد سحقت جيوشا تفوقها عددا بنسبة العدد الواحد الى العشرين ، وكان سلاحها الحقيقى الشجاعة والوطنية وحب رجالها لجيوسبى غاريبالدى .



الفصل السابع عشر

إنشاء إيطاليا

رأت الأشهر الستة التالية نوعا من الحرب يختلف الاختلاف كله عن المغامرة الخطيرة الهوجاء التى قام بها الألف ، وحتى قبل مسير غاريبالدى من بالرمو وقد وافته الامداد وأعاد تنظيم جيشه لتحرير النصف الشرقى من الجزيرة دعته الجزيرة بأسرها محررها ، وكانت هناك قوات كبـــيرة من جيوش البوربون على الساحل الشرقى وقد هزمها غاريبالدى فى معركة ميلاتزو ، وواصل زحفه ليعبر مضيق مسينا الى صميم مملكة نابولى .

وترقبت أوروبا جميعها غاريبالدى وهو يقوم بزحفه التاريخى فى قفار جنوب ايطاليا المتوقدة ويسوق أمامه جيوش البوربون الجرارة سوق الأغنام ويحرر كل مدينة فى طرقه وكل قرية ، وكان الرجال ينضمون اليه ويقبلون عليه ، ولما اقترب من نابولى فى أول سبتمبر لم يجد الملك فرنسيس وزوجته جنة أوفى من الهرب عن طريق البحر .

وفى اليوم التالى ركب غاريبالدى ودخل عاصمة البوربون وأعلام النصر تخفق حوله ، وكان يجلس فى عربة مكشوفة وحوله بعض صحابته من المقاتلين القدامى فى قمصانهم الحمر المضرجة بدم المعارك ، واستقبله سكان المدينة جميعهم البالغ عددهم نصف المليون بالضجيج والعجيج وقد استطارتهم الفرحة واستخفهم الطرب وكانوا يتغنون الأغانى القومية والأناشيد الحماسية ودفعه تيارهم الزاخر فى طرقات نابولى حتى بلغوا به فوهات المدافع المحشوة فى حصن البوربون ، وكانت الجنود ترقب غاريبالدى فى العربة ، وكان منه أن هب واقفا وضم ذراعيه وتفرس فى وجوههم ، فحيوه ولم يطلق أحـــد منهم رصاصة واحدة .

وأصبح غاريبالدى القائم بالأمر فى نابولى وصقلية ، وكان ذلك مهمة شاقة ، فهو لم يكن رجل سياسة ولا رجل ادارة ، وقد استغل هذا الكثيرون ، لقد كان جنديا ، وكان نظره متجها الى البلاد الواقعة فى شمال نابولى والتى تقهقر اليها معظم جيش البوربون ، وكان لابد من معالجة هذه المشكلة قبل تحرير المملكة برمتها والتأهب لتسليمها الى الملك فيكتور عمانويل .

وكان سبب أشد المشكلات اعتياصا على غاريبالدى موقف كافور الملتوى ، فرئيس وزراء بدمونت كان لا يؤمن ايمانا تاما بحسن نية غاريبالدى ، ورجل مطبوع على سوء الظن مثل كافور كان يبدو له أن

رجلا موهوبا فى قيادة الجيوش مثل غاريبالدى لابد أن تترامى أطماعه الى بسط سلطانه على المناطق التى غزاها •

والواقع أن هذين الرجلين العظيمين لم يفهم أحدهما الآخر قط ، ولم ينطو أحد منهم للآخر على شيء من الحب ، ولقد أخفق كافور فى تقدير وطنية غاريبالدى البريئة من الأثرة ، كما عجز غاريبالدى عن فهم الشبكة العنكبوتية الواسعة للدبلوماسية الأوربية التى كان كافور ينسج خيوط طريقه بها فى حذر واحتياط •

كانت هناك مشكلة الولايات البابوية الباقية ، ولاية أومبريا وولاية مارشيز وروما نفسها ، وكان يؤيد البابا فى سيطرته على هذه الولايات نابليون الثالث امبراطور الفرنسيين ، ولو ترك الأمر لغاريبالدى لواصل زحفه الى روما ، ولكن كافور كان حريصا على أن تظل فرنسا فى جانبه حتى تسلم ايطاليا المتحدة من الخطر ، وكانت خطته أن يرد يده عن روما فى الوقت الذى يعقد فيه العزم على غزو الجيش البدمونتى لأومبريا ومارشيز ، وحينما عارض نابليون فى ذلك قال له كافور « اذا لم تقبل فيكتور عمانويل فقد تحصل على غاريبالدى » •

ونرى من ذلك أنه استفاد الى أقصى حد من انتصار غاريبالدى فى الجنوب ، ولكنه أقام العقبات فى طريق غاريبالدى فى أثناء قيامه بذلك ، وفى سبتمبر تحركت جيوش الرجلين لاستكمال تحرير ايطاليا ، ومضى جيش بدمونت لطيته حتى شاطىء الادرياتيكى ، ثم أخذ يتجه جنوبا منتحيا ناحية نابولى ، وحارب قوات البابا غير المتماسكة وسحقها سحقا •

وفى أثناء ذلك كان غاريبالدى يزحف بجيشه شمالا من نابولى الى نهر فولتورنو حيث كان جيش البوربون قد ثبت أقدامه وركز

قوته ليقف الموقف الأخـــير ، وكان تحت امـــرة غاريبالدى قرابة واحد وعشرين ألفا من الجنود لمنازلة جيش البوربون الذى تجاوز عدده الخمسين ألفا من الجنود ، وهكذا كانت استجابة شمال ايطاليا لمغامرة الألف الرائعة،وطوال صيف سنة ١٨٦٠ كان النصف الشمالى من ايطاليا فى حركة قومية دائبة مشبوبة الحماسة واسعة الانتشار ، ونهضت المدن والبلاد والقرى نهضة رجل واحد تقدم المال والسلاح والمؤونة وقبل كل شيء المتطوعين من الرجال لشد أزر غاريبالدى •

وبين شهر مايو وشهر سبتمبر أبحرت من جنوا وليجورن الى نابولى أربع وثلاثون سفينة تحمل القوات التى ستحارب الى جانب الباقين من الألف وقائدهم المحبوب ، وعلاوة على هـــؤلاء كان عند غاريبالدى عدد ضـــخم من الصقليين ومتطوعى النابوليين وبعض المدنيين وفريق من جنود جيش البوربون السابقين الذين انضموا الى جيشه •

وكانت معركة فولتورنو تجربة غاريبالدى الفذة فى الحرب حسب أصولها المرعية وبالجيوش المصطفة على مسافات مترامية تشمل سبع مدن أو ثمانى مدن ، وبرغم أن رجاله كانوا شجعانا فانهم لم يكونوا مدربين مثل الألف الأصليين ، وقد جشمتهم صعوبات الزحف الطويل الى نابولى متاعب جمة وكلفتهم المعارك الســـابقة للمعركة الكبرى خسائر جسيمة فى الأرواح ، وكان العدو أوفى منهم أهبة وأحسن تسليحا وجيشه مكونا من جنود مدربين محترفين،وكان مع غاريبالدى ضـــباطه البارعون الذين يمكن الثقة بهم والاعتماد عليهم ، وكانوا موزعين فى دائرة متسعة ولكل واحد منهم قيادة مستقلة •

ولكن الكثيرين من الجنود الذين كانوا من ناشئة الشبان كانوا يشبهون ذلك الشاب الشريف القادم من ميلانو الذى سأله أحـــد

الانجليز لماذا يتخلى عن حياة الترف ويؤثر عليها حياة كحياة الكلاب دون أن يتقاضى شيئا أو يقدم له طعام ، وكان غير مزود بما يكفى من العتاد ويكاد يكون فى أسمال ، فأجابه قائلا : « منذ أسبوعين استولى على اليأس وهممت بأن أنفض يدى من الأمر كله ، فجاء غاريبالدى ووقف ولست أدرى لماذا ، ولم يسبق لى قط أن بادلته الحديث وربما ظهر على السأم والضـيق ، والواقع أننى كنت كذلك ، ووضـع غاريبالدى يده على كتفى واكتفى بأن قال بصوته الخفيض الخفى الذى بدا لى كأنه روح يهتف فى أعماق نفسى « تشجع ٠٠ تشجع ٠٠ اننا نحارب من أجل بلادنا » فهل تظننى أستطيع التراجع بعد ذلك ؟ وفى اليوم التالى خضنا غمار معركة فولتورنو » ٠

وانتصر غاريبالدى انتصارا باهرا ، ففى اليوم الثانى من أكتوبر هزم غاريبالدى آخر جيوش البوربون التى لم يبق منها بعد المعركة سوى فلول أبيدت فى خلال الأيام الباقية من الشهر ، وفى صباح يوم ٢٦ من أكتوبر استيقظ غاريبالدى وجنوده لابسو القمصان الحمر من نومهم فى المعسكر ليروا جيش فيكتور عمانويل زاحفا على الوادى أمامهم، فاستدعى غاريبالدى أركان حربه وامتطى صهوة جواده ومضى الى جانب الطريق ينتظر قدوم مليكه ، وكان القـائد يلبس القميص الأحمر المضرج بدم المعارك والبنق ، ونظر جنـود جيوش الشمال الحسنو البزة الى هؤلاء الشعث الغبر وهم يتقدمون ٠

وفجأة سمع صوت الركب الملكى ، وارتفعت أصوات تصيح قائلة : « الملك ٠ ٠ الملك ٠ ٠ » وأخب الملك جواده الفاره الى ناحية غاريبالدى ، فرفع القائد قبعته السوداء البالية من فوق رأسه وصاح « انى أحيى أول ملك لايطاليا » ٠

فبسط الملك يده وأمسك بيد غاريبالدى ، وظل قابضا عليها طويلا وبشدة ، ثم سارا على جواديهما جنبا الى جنب ووراءهما أركان

حربهما وكانوا مزيجا عجيبا من ذوى القمصان الحمر الرثة ولابسى الحلل اللامعة المحلاة بالزخارف والأوسمة والنياشين ٠

وبرغم ذلك لم تخل ساعة الانتصار من الألم المرير ، فبينما كان راكبا الى جانب الملك الذى لولاه لما انتظم له الملك أخبر أن جيش بدمونت الملكى سيتولى من ذلك الوقت الأعمال الحربية ، وأنه ليس هناك حاجة الى جيش غاريبالدى ، وقبل غاريبالدى هذا الأمر بروحه العظيمة التى لم تخذله ووطنيته الخالصة المخلصة ٠

وكان حاضرا فى غرفة العرش حينما تسلم فيكتور عمانويل نابولى وصقلية رسميا وضمهما الى مملكة ايطاليا ، وعاد غاريبالدى بعد هذه الحفلة فردا عاديا مرة ثانية ، وبرغم أن الملك عزله فقد فكر فى مكافأته بأن يهبه قلعـــة ملكية وسفينة وضياعا وألقابا لأبنائه وصداقا لكريمته ، فرفض غاريبالدى ذلك كله ٠

وغادر نابولى مع ابنه مينوتى رجلا فقيرا كما كان طوال حياته ، ولم يحمل معه شيئا على الباخرة التى ركبها الى كابريرا سوى حقيبة من بذور القمح لمزرعته الصخرية ، وحضر قليلون من خاصة أصدقائه فى ظلام فجر نوفمبر ليروه وهو راحل ، وودعهم غاريبالدى بما انطوت عليه نفسه من الحب الذى بث فى نفوسهم الشجاعة وألهمهم البطولة وأثار شجونهم الآن وأسال دموعهم ، وكانت كلماته الأخيرة وعدا لهم باللقاء مرة ثانية فى روما ٠

وكان هذا هو الهدف التالى لحيـــاته ، فلابد من تحرير روما وفينسيا قبل أن تتم رسالته ، وبرغم انه عاد الى الحرب بعد ذلك مرات عدة فانه لم يكن هو ولا أى ايطالى آخر الذى عمل على تخليص ايطاليا من آخر سيطرة أجنبية عليها ، ومن عجائب المقدور أن الفضل فى ذلك يرجع الى قوة بروسيا الصاعدة ٠

ففى سنة ١٨٦٦ هزمت بروسيا النمسا فى الحرب وتركتها بمكانة من الضعف لا تستطيع معها الاحتفاظ بفينيتيا ، ولذلك نزلت عنها لايطاليا ، وفى سنة ١٨٧٠ سحقت بروسيا فرنسا ونابليون الثالث الذى استقال وعمد الى الفرار ، وفقد البابا نصيره الفرنسى ، واستسلمت روما لفيكتور عمانويل معطية له فى النهاية عاصمته القومية ومعطية لايطاليا وحدتها الكاملة ٠

واليوم طوى عهد أسرة فيكتور عمانويل وأصبحت ايطاليا جمهورية ، وبقيت البلاد المتحدة التى حارب غاريبالدى من أجلها ، وتاريخها الطويل يشمل ألفى سنة من تاريخ الحضارة الغربية ، بعضه كان باهرا لامعا وبعضه الآخر كان شائنا مخزيا ، ولا تزال ايطاليا حتى اليوم تحمل آثار ندوبه نتيجة لمئات السنين من التفرق والانقسام ولا تزال تنعكس تلك الفروق والخلافات فى عادات أهلها ٠ وتقاليدهم، ولكن اسما واحدا يجمع شملهم ويشعرهم بكرامتهم القومية ، وهذا الاسم هو غاريبالدى ٠

ومن الشمال الحديث الناشط الى نهاية صحراء صقلية الداخلية لا يوجد اسم أحب الى نفوس الايطاليين من اسم غاريبالدى ، وتمثاله القائم على قمة نصب جميل يشرف على قلب كل مدينة ايطالية ، وليس هناك قرية من الضآلة بحيث لا تشمل شارعا أو لا تتسع لميدان يسمى باسمه ، وحينما يرتفع الشعب الايطالى الى خير مافيه فانه يكون ملبيا صوت الرجل الواضح البسيط الذى كان يرتدى القميص الأحمر والبنق والذى قاده الى الحرية فى أعظم أوقاته وأمجد ساعاته ٠

صدر من هذه السلسلة

١ ـ سيمون بوليفار	ترجمة	أحمد قاسم جودة
٢ ـ قاهرو الحمى الصفراء	ترجمة	الدكتور كمال سعيد
٣ ـ جنكيزخان	ترجمة	مترى أمين
٤ ـ ليوناردو دافينشى	ترجمة	سامى ناشد
٥ ـ كريستوفر كولمبس	ترجمة	رجائى نجيب مقار
٦ ـ الاسكندر الأكبر	ترجمة	فاروق القاضى

مؤسسة طباعة الألوان المتحدة
٨ شارع المرجوشي - مصر القديمة - القاهرة
ت. ٣٢٥٠٧

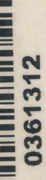
هـذا الكتـاب

يضم هذا الكتاب قصة كفاح غاريبالدى البطل ـ ذى العزيمة والارادة التى لا تعرف حيلولة الحوائل دون نفاذها ـ الذىأنشأ ايطاليا الحديثة الموحدة بعد أن كانت ممزقة دويلات دويلات • فتقدم لنـا المؤلفة لمحات كاشفة ومشاهد رائعة من حياة هذا البطل الحقيقى الذى تفوق شجاعته اقدام أبطال الأساطير • وان قصة كفاح غاريبالدى لتطول فلا يفيها حقها منك الا أن تقرأ عنها هذا الكتاب الذى بين يديك ، لترى بعينيك كيف تكون عزمات الأبطال فى كفاحهم من أجل أوطانهم •

ألا ما أجدر شبابنا الفتى الناهض أن يطالعوا هـذه الصفحة الرائعة من صفحات الاخلاص والعزم فى هذه الفترة الخطيرة من تاريخ الأمة العربية التى تنشد الوحدة بعد تمزق كما كانت ايطاليا تنشد الوحدة منذ مائة عام •

من مقدمة

الدكتور زكى نجيب محمود





الثمن ٢٠ قرشا

سنة ١٩٦٣